الفصل الثاني

مدخل أبي العلاء إلي الاغتراب

كف بصر أبي العلاء المعرى وهو في الرابعة من عمره، .. ومن هنا يبدأ حديثنا عن اغترابه، ... ذلك أننا لا نعتقد أن أبا العلاء قد ألف هذه المحنة بما يوفر له حياة طبيعية، وبما يجعله ناظرا إلي الحياة نظرة برينة من الحاح العجز ولنائجه الشعورية

إن هذه السن الصغيرة التي ابتلي فيها المعرى بمحنة بصره، سن تشكل حياة الإنسان المستقبلية، بل تتحكم في كل مساراتها،" وليس في حياة الإنسان فترة ألزم للنمو النفسي من الفترة الواقعة بين الثالثة والرابعة من العمر، وهي التي يظهر فيها الشعور بالذات، وأهم من هذا كله أن الطفل يكون موقفه من نفسه في هذا السن، ففي الثالثة من العمر ينظر الطفل إلي نفسه أولا.... وتشاء المقادير أن يبقي هذا التأثير الأول لذاته عليه مدى الحياة، ويقرر خلقه كفرد تقريرا، ثم أن هذا التصور الأول للذات، ذلك التصور الذي يغلب عليه أن يكون ذا طبيعة غامضة غير محددة، يكبت عندئذ، ويكون عقدة تسميها" توما"[1] ويتطور تأثير هذه المحنة الجسدية إلي أبعد من هذا حتى أننا نجد" أن الصفات الخلقية عند الفرد، ترجع أولا، وبالذات إلي ظروف البيئة الأولي، وقد تنشأ هذه الصفات بسبب حادث واحد، أو نتيجة لجو فاسد غير صالح.

وغير خاف أن تجربة واحدة من تجارب الحياة، قد يكون لها من التأثير الخطير، ما يغير موقفنا من الحياة تغييرا شاملا، ويبدل خلقنا تبديلا كاملا، وما نلاحظه علي بعض الناس من مظاهر الكآبة والشعور بمرارة الحياة ربما يرجع إلي فشل أو خيبة أمل".[2]

نستخلص من هذا أن فقد البصر كان العامل الرئيسي الأول لاغتراب أبي العلاء، وأنه هو الذي أوجد كثيرا من عوامل الاغتراب الأخرى، أي أسباب أخرى لم تكن كافية وحدها لتشكيل قوة تحويل مسار[3] حياة أبي العلاء لو لم تضف إلي محنة فقده بصره.

وقد اتفق علماء النفس- علي تباين مدارسهم واتجاهاتهم – علي أن العجز الجسماني أو القصور الجسدي" أحد المكونات الأولية للشخصية، علاوة

---

(١) ج.أ هاد فيلد / علم النفس والأخلاق. ترجمة محمد عبد الحميد أبو العزم / مكتبة مصر ١٩٥٣م/ ص٧٢ بتصرف

(٢) السابق/ ص ٢١-٢٢

(٣)السابق / ص ٢٢

علي أن للجسم تأثيره علي اتجاهات المجتمع الخارجي".[1]

ويشكل الشعور بالعجز في رأي " أدلر" عاملا فعالا في نموه النفسي"[2] أي في نمو العاجز نفسيا.

وإذا كانت الأراء السابقة قد تناولت العجز في عمومه، فأننا نضيق الدائرة لنرى الحياة النفسية للكفيف، ومدى تأثير كف البصر عليه في تعامله مع ذاته ومع المجتمع الخارجي.

وبداية نعتقد أن عجز البصر من أقصي أنواع العجز التي تصيب الإنسان لأنها إعاقة حقيقية عن الاتصال بالحياة، فالعين الإنسانية أداة تعرف هامة علي الحياة تفلي أحيانا- في الضرورات- عن حواس أخرى كالسمع وتقوم مقام للسان في بعض الأحيان، لذلك فإن إعاقتها حادة.

ويحاط الكفيف منذ صغره- إن كان قد كف بصره صغيرا كأبي العلاء- بمعاملة غير سوية من المجتمع، فئة تحيطه بالشفقة، وأخرى تحيطه بالاحباط، وثالثة تنتقص من قدرته علي أي شئ، ورابعة....، فضلا عما يلقاه من أهله من معاملة تكاد تكون متطرفة، فليس " للعمي أثر كبير في تكوين وتطور الطفل الأعمي، مثل ما للخوف والحرمان والأسى الذي ينتج من شعور الأبوين".[3] بما يحد من حرية تحركه علي الحياة، فيستجمع معرفة ناقصة مشوهة بالوجود، وتقوم بينه وبين هذا الوجود علاقة متوترة.

من هنا يبدأ كفيف البصر في فتح باب خصوصية حادة، يبدأ في نسج شرنقته المؤلمة التي هي مزيد من تعقيده وغموضه، وتداخل عوالمه، بل هي مزيج من الضعف والعداء لكل ما هو خارج الذات، فمنذ "اللحظة التي ينفصل فيها الفرد عن بدن الأم، تبدأ أعضاء جسمه والأعضاء التي لحقها القصور في جهادها ضد العالم الخارجي، وهو جهاد شاق جليل أشد وأقصي بكثير من عنفه من الجهاد الذي تقوم به الأعضاء السوية"[4].

والعاجز في عمومه يطارده عجزه، وإحساسه الحاد بأن " الإصابة

---

(١) د. مختار حمزة/ سيكولوجية المرضي وذوي العاهات. دار المعارف ١٩٥٦م / منشورات جماعة علم النفس التكاملي/ أشراف د. يوسف مراد/ ص ٦٤ بتصرف

(٢) السابق / ص ٥٥

(٣) السابق / ص ١١٦

(٤) سيكولوجية المرضي وذوي العاهات ص ٤٨

أثرت علي شخصيته بأكملها، ويتأثر سلوكه فعلا على هذا الأساس"" فيستولي عليه هم ملح أن يؤكد فاعليته للمحيطين به واقتداره الجسدي وأنه دائم الشعور بنقيض العجز[٢] وفي ذات الوقت يقع تحت عبء وإغراء التقليل الدائم من شأن نفسه[٣] سواء في حواره الداخلي مع نفسه هذه، أو في علاقته بالآخرين.

ولأنه كثير الانطواء علي ذاته، فهو كثير النقد لها، والمراقبة لسلوكها، والمقارنة بين هذا السلوك الخاص وسلوك المحيطين، وهي مقارنة تنتهي في الغالب بأن يجد نفسه أقل من الآخرين فيسفهها، بينما هو إذا نظر إلي نتائج أفعالها التي خرجت من إمكانات متواضعة، لمتلأ بالأكبار والتقدير لها" فهو في صراع دائم بين القيم المادية والقيم الروحية، فهو إلي أسفل إذا فكر في الأولي، وإلي أعلي إذا فكر في الثانية"[٤].

وينفرد الكفيف بعالم مميز، قوامه الرئيسي البحث عن طرق ملاءمة للتعرف علي العالم، طرق لا تثير الشفقة أو الاستهزاء، وهو في الغالب يستطيع أن ينمي حاسة ما من حواسه، كاللمس مثلا، لذلك يتمركز اهتمامه حول جسده مبكرا" فإن حياة الطفل الأعمي الاجتماعية تتركز منذ البداية حول نفسه، وتستمر كذلك علي مدى حياته"[٥] وقد يتعمق انطواء الكفيف علي ذاته، ويتفاقم خوفه من العالم الخارجي، إلي حد أنه يفتقد الأمان في هذا العالم[٦].

ولأن الحياة قوية، فإن الإنسان منظور علي البحث عن سبل تعويض لما يفتقده فيها- ماديا- ليستطيع أن يكمل المسيرة، والعاجز تعلو عنده القدرة علي التعويض أو الدفاع عن الحياة، فتنمو داخله نزعات تتناقض مع إحساسه بالعجز- وإن كانت تدل علي هذا العجز، كغريزة حب السيطرة، أو النمو المتضخم للنزعة الفكرية[٧].

ومع ذلك يهدد العاجز انشغاله بعاهته الجسمية، فقد يؤدي هذا الانشغال إلي كراهية الحياة، وتعمد إماتة كل الغرائز المحتفية بها، أو إضعاف هذه

---

(١) السابق/ص٤٦
(٢) السابق /ص ٥٠
(٣) السابق /ص ٥٢
(٤) السابق/ص ٥١
(٥) السابق/ص ٣٦.
(٦) السابق/ص ٤٩
(٧) هادفيلد. علم النفس والأخلاق/ ٢٠.

الغرائز علي الأقل- ، وقد يصل هذا إلي التفكير في الانتحار أو الإقدام عليه[1] وانتحار صاحب العاهة انتحار مادي ومعنوي، فمجرد مقاومته لطبيعته وحيويته إماتة متعمدة للحياة داخله، لذلك فالكبت سلوك ملازم للعاجز لأنه انعكاس طبيعي لخوفه من المواجهة وإحساسه أنه محط مراقبة،" ويترتب علي الصراع والكبت أن يخفق قسم كبير من شخصيتهم في الظفر بالتعبير التام. ويسمي " جانيه" هؤلاء الناس (السيكاستينين) أي المصابين بالأرهاق النفسي، وأهم مظهر يميز مرضهم هو الشعور بعدم الاكتمال، أو عاطفة عدم الاكتمال كما يسميها(جانية)، فيشعر المريض بأن شيئا ما ينقصه، وبأنه أمام خسران ورهاب مواجهة العالم، وما فيه من العقبات، أو يهيم علي وجهه كأنما يبحث عن شئ فقده، وهو في الواقع يبحث عن بر السلامة، أو شط الأمان من أي شئ يعرض له، كما أنه لا يهتم بطعامه وشرابه،.... إنه قد أخفق في تحقيق ذاته"[2].

والعانس في كبت أهوائه يعاني- كما يقول علم النفس- موات الحياة أو" النور استثيا الخلقية." [3] فهو شخصية منقسمة علي ذاتها، غير مكتملة لأن اكتمال الذات هو توافق جميع العواطف والعقد معا" تحقيق هذا التوافق هو الذي نسميه" تحقيق الذات" والحالة الناتجة عن هذا التحقيق هي التي نسميها: السعادة". [4]

فالعجز يلد حياة غير سوية، بل يلد حياة غاية في التعقيد والتدخلات والخلط، خاصة إذا ما كان العجز مصابا في المراحل الأولي من العمر ، لذلك كله نري أن فقد البصر كان الأساس العميق في بنيان أبي العلاء المعري نفسيا وفكريا، ومن ثم فهو خالق لقضاياه سواء بطريق مباشر أو غير مباشر ، ... مختلفين بذلك مع رأي بعض الدارسين والنقاد الأفاضل الذين لم ينسبوا لمحنة بصر أبي العلاء تلك الأهمية، فقد أرجع د. طه حسين عزلة أبي العلاء وشقاءه الاجتماعي إلي غريزته الوحشية وآفة بصره[5] وكأن الغريزة الوحشية قد

---

(١) سيكولوجية المرضي وذوي العاهات/ ص ٦٠.
(٢) علم النفس والأخلاق/ ص ٨٨.
(٣) السابق/ ص ٣٥.
(٤) السابق/ ص ٩٠.
(٥) د. طه حسين .مع أبي العلاء في سجنه دار المعارف ط١٣/ سنة ١٩٨١م/ ص ٦٢

سبقت في الوجود آفة البصر أو بمعني آخر - كان أبا العلاء قد ولد بتكوين نفسي حياه لمثل هذه الحياة، . ولعل د. صالح اليظي يؤكد ميله إلي هذا الرأى حين يرى أن " بذور العبث والتشاؤم والشك في جدية الحياة ومصير الكون كلها كامنة بالفطرة في نفس أبي العلاء، ولا يستقيم لدينا بحال أن يكون العمي هو العلة وراء ذلك المناخ النفسي العلائي المميز والمعقد "[1] والحقيقة أننا نده ش من رأيه هذا الذي يلغي قيمة التجربة الإنسانية وأثر ممارسة الإنسان للحياة وارتطامه بها، ولا يستقيم لدينا بحال- علي حد تعبير د. اليظي- أن يمتلك أي إنسان سواء أكان أبا العلاء أو غيره- بذور مواقف ضخمة من الكون، وبذور مثل هذه المشاعر بالفطرة، إذ أن هذه المواقف وهذه المشاعر لا تتولد إلا من الاحتكاك والتأمل العميق في كافة أرجاء الوجود، ومثل هذه البذور لا تورث،.. بل أن بعض الميول النفسية الأخرى وبعض القدرات الفكرية- كحب العلم والقدرة علي التصنيف والنقد- وهي قابلة لقانون الوراثة نستطيع في حال كحال أبي العلاء أن نجد لها تفسيرا عريضا مرتبطا بمحنة بصره.

أن الموقف من الحياة لا يتشكل إلا بعد الصراع معها واختبارها، ومن هنا تنوعت الحياة الإنسانية تنوعا خصبا، وكذلك فإن العلم يقول لنا أن هناك إمكانية واسعة للتحكم في طرق تفكير طفل ما، وسلوكه، ومعتقداته، إذا ما نقل من بيئة ما إلي أخرى- صغيرا- بما يلغي فكرة التهيؤ الفطري. لكن الحالة الوحيدة التي لا يحدث فيها النقل من بيئة إلي أخرى اختلافا يذكر في المناخ النفسي لهذا الطفل هي أن يكون هذا الطفل مصابا بعجز ما، هنا يسيطر علي الإنسان طيلة حياته الشعور بأنه حالة غير طبيعية في الكون، حيث الجميع حوله أسوياء،أما هو فيبدو نتوءا شاذا أو وضعا استثنائيا،..... ومن هنا يبدأ صراعه مع المجتمع الطبيعي، المحيط به.

وعلى رغم نفي د. اليظي قيمة كف البصر في تكوين المناخ النفسي لأبي العلاء يذكر في أحد مواضع مؤلفه أن العماء من مكونات الشخصية العلائية فكرا وشعورا[2] وأنه كان دليلا شخصيا ملموسا مباشرا ودائما علي

---

(١) د صالح حسن اليظي الفكر والفن في شعر أبي العلاء المعرى " رؤية نقدية عصرية للتراث" دار المعارف ١٩٨١م / ص ٢٤

(٢) الفكر والفن في شعر أبي العلاء المعري/ ص ٣١٨

عبث الحياة وفوضاها وانتفاء المنطق عنها ـ نعود في موضع اخر ليقرر أن تجربة أبي العلاء لم تكن لتتغير لو لم يكن أبو العلاء قد فقد بصره[٢].

وفي معرض الحديث عن معايشة أبي العلاء لمحنة بصره عبر مراحل سنية مختلفة يضطرب رأي د. طه حسين نفسه تارة يثبت التأثير البالغ لهذه المحنة علي نفس أبي العلاء في المرحلة المبكرة من عمره، وتارة أخرى يراها ليست ذات خطر في تلك المرحلة، يقول:

" فقد أبو العلاء بصره صبيا واستقبل الحياة غير مستمتع بهذه الملكة التي ترسم في نفس الأحياء من الحياة ما لا عهد له بها، ومع ذلك فقد جاوز الصبا، وتقدمت به السن إلي الشباب، وتقدم به الشباب إلي الكهولة دون أن ينكر من أمر الوجود شيئا ذا خطر، أو دون أن يشتد انكاره لأمر من الأمور.

وما من شك في أنه قد أحس منذ أول عهده بهذه المحنة الطبيعية فرقاً عظيما بينه وبين أترابه، وما من شك في إحساسه هذا الفرق قد المه وآذاه، وأسبغ علي نفسه شيئا من الكآبة المتصلة القاتمة، واضطره إلي كثير من التحرج والتحفظ والاحتياط في سيرته العملية، ولكن ما من شك في أنه قد قهر هذا كله، وظهر عليه وقتا طويلا من حياته.

فقد اجتهد في أن يسير سيرة غيره من الناس، واجتهد أهله في أن يهيئوه لهذه السيرة ما وسعهم ذلك".[٣]

ونحن حين نعاين قصائد سقط الزند ندرك أن أبا العلاء في تلك المرحلة من عمره لم يقهر هذه المعاناة التي تولدت من كف بصره، وأنه لم ينج من كثير من المشاعر السلبية التي تنتج عنها، كما سنتلمس ذلك أيضا من خلال اللزوميات وهي مرحلة متأخرة زمنيا نفترض عقليا قهر أبي العلاء لمعاناته فيها، ولكننا سنرى أنه لم ينجح في ذلك وأن كان قد فتح آفاقا إنسانية أوسع في تناوله لهذه المعاناة.

مدح أبو العلاء بعض القوم في سقط الزند، ورثا البعض الأخر، وعالج شعر الفخر، وهنا أحدهم بمولوده، وهنا الأخر بزفافه، وبارك لثالث عودته

---

(١) الفكر والفن في شعر أبي العلاء المعري/ص ٣١٨.
(٢) السابق/ص ٣١٧.
(٣) مع أبي العلاء في سجنه/ص ٥٥ـ ٥٦

سالما من السفر ، إلي اخر هذا مما سماه ابو العلاء .متحات لسوس الشعر وسماه د.طه حسين اجتهادا من أبي العلاء للتشبه بغيره من الناس أو اجتهادا لمصالحة الحياة.

يضاف إلي هذا ما يروى عن أبي العلاء من ظرفه ولعبه بالشطرنج والنرد واجازته للشعراء بأبيات مرتجلة،... إلي أخر هذا من مظاهر علاقته بالآخرين في تلك السن،...

والحقيقة أن هذا السلوك وهذا الشعر . الذي رآه أبو العلاء امتدانا لسوس الشعر- في جزء كبير منهما مقاومة لكف البصر ، ولكنها مقاومة ليست صحية، بل مقاومة هنيان وتخبط، لأنها قائمة علي الصخب والافتعال وردود الأفعال العنيفة التي تستقطب الأنظار محاولة أن تقنعها بالفكاك من أسر العاهة الجسدية

أن حياة أبي العلاء في هذه المرحلة لا تعكس قهره لعاهته، بل تعكس قهر العاهة له واقتدارها عليه، وهذا طبيعي لأنه في مرحلة الصبا حيث التناقض بشع بين طبيعة هذه المرحلة- فسيولوجيا وسيكولوجيا- وبين تبعات العاهة وقيودها،... أن ارتطام الجموح بالعجز لا يتحول إلي أدني من هذه المظاهرات الصاخبة والتظاهر المثير للألم والشفقة،. أن أبا العلاء- في هذه المرحلة- قد أحاطت به ذاته تماما فلم ير إلاها ولم يراها إلا من خلالها، علي عكس مرحلة أخرى متأخرة ستنظر فيها الذات إلي طبيعتها ومحنتها نظرة أكثر نضجا.

يشير مضمون قصائد سقط الزند- مع التفاوت الزمني بينها- إلي أن أبا العلاء لم ير في محنة بصره إلا الدلالة علي الشر ، بل هو رآها شرا محضا، مما ملأه بمشاعر الغضب والوحدة والتمرد،... كانت محنة البصر معادلا للعجز الدائم والإحباط، لذلك نألف في أشعار سقط الزند تكرار أمنية بعينها لأبي العلاء، هي التشوف إلي مذاق التعب: التعب المتولد من الحركة والتجوال- لا ذلك التعب المنبعث من براثن العجز- يحلم أبو العلاء أن يضنيه وناقته إرهاق المسيرة، وربما إرهاق الرحيل بحثا عن الآمال بما يعد شكوى غير مباشرة من العجز المتولد من العماء ، يقول :

تعـالي الله هـل يمـسي وسـادي يمـــين للـــشملة أو شـــمال
وهـــل أرمـــي بمتلفـــة نجيبـــا متـي يـنهض فليس بـه انتقـال[1]

وسقط الزند لا يقدم إجابة بيضاء لهذا التساؤل، بل أنه يري الواقع واقعا يفرض عليه كل دلالات اللااستطاعة، يقول أبو العلاء:

وكيف يجرّ الجيش، يطلب غارة أسير لمجرور الذيول كحيل[2]

لقد تراءت له حقيقة الحياة البشعة، بدا له تطلعه إلي الأمل والحياة الطبيعية حلما مزيفا، بل حلما منقلبا إلي خسران وأذي، وكجناحي النسر أو كريشه للذي كان يسخه في الطير لتتزايد سرعته، فإذا به في حال آخر يصبح ريشا في سهم- في حرب وصراع-..... يقول أبو العلاء:

شـكوت مـن الأيـام تبـديل غـادر بـواف، ونقـلا مـن سـرور إلـي هـم
وحـالا كـريش النـسر بينـا رأيتـه جناحا لشهم آض ريشا علي سهم[3]

أن العجز والحركة ثنائية متصارعة، مهيمنة علي شعر أبي العلاء، بل هي تلخص كثيرا من الاتجاهات الموضوعية لشعره- كما تفتح آفاقا ثريه للحديث في الخصائص الفنية لهذا الشعر- فهذه الثنائية تصور طبيعة صراعه مع الكون، وتحدد زاوية نظرته إليه، وتعين الجانب الذي يهمه منه،... أن أبا العلاء في نظرته إلي الكون لا يسترعي اهتمامه إلا تلك الحيوية التي يتمتع بها الكون ومفرداته وعناصره المختلفة وإلا تلك المفارقة بين هذه الحيوية وعجزه الشخصي، وستغلب عليه ذات النظرة في تناوله للمسائل الميتافيزيقية- وأن كانت ستتسع لتشمل عجز الإنسان في عمومه بالقياس إلي حيوية الكون- وتلك الحيوية ليست فقط للكوائن الحية، بل أن أبا العلاء يطالعها في الجوامد التي تنمو أمامه وتتحرك، وهو علي ما هو عليه من توقف وركود!...بما يعد انعكاسا للعماء ، يقول:

---

(١) شروح سقط الزند ق٤ تحقيق أ. مصطفي السقا، عبد السلام هارون، عبد الرحيم محمود، إبراهيم الأبياري، حامد عبد المجيد، إشراف د طه حسين . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م/ص ١٦٦٦

(٢) ديوان سقط الزند . بيروت. دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٨٠م/ ص ٢٢١

(٣) شروح سقط الزند/ق ٣ ص ٩٤٩ الشهم السريع من كل شئ

غصن الشباب عصي السحاب فلم يعد دا حسرة، إذ كل غصن أخضر
قد لورقت عمد الخيام واعشبت شعب الرحال ولون رأسي أغبر[1]

وهنا نري الصراع بين العجز والحركة متمثلا في الصراع بين تورق عمد الخيام وأعشوشاب الرحال من جهة ، وبين رأس أبي العلاء المغبر من جهة أخرى ،.... فتورق الخيام إمعان في الإقامة والبقاء في المكان، إمعان في الثبات، وعشب الرحال كذلك عظيم الدلالة علي تعطيل قوي الرحل والراحلة، وابقائهما دون استثمار وتوطينهما بعيدا عن السفر والحركة والسعي،... أما رأس أبي العلاء فمغبرة- وهنا الطرف الثاني من الصراع- مغبرة من الترحال والسعي والابتلاء بالرحلة ، وهذه الرحلة أمنية معنوية تتصارع مع الواقع المتمثل في عمود الجانب المادى الملموس للرحلة أي الرحل والراحلة، لكنها أمنية تدل علي جهاد أبي العلاء الداخلي لسطوة العجز والتفافه حوله.

ويتمثل جهاد أبي العلاء للجدب في موضع آخر من سقط الزند، يصور سعيه وراء الماء، هذا السعي الذي يصل إلي حد العض بالنواجذ علي الماء.

والماء وردي، لا تزال نواجذي في منتضاه سوابحا، كأوازم[2]

أن البيت السابق يطرح تصور أبي العلاء لنتيجة الصراع بين العجز والحركة، فنتيجته هي العض علي الماء، هي الخواء واللاجدوى و.....و..... . وأبو العلاء لا يطلب من الحياة حلولا مؤقتة، لا يطلب منها هدهده أو تأجيلا، بل يطلب الحياة المكتملة التي إن لم تتحقق أعرض عن أنصاف الحلول:

وإذا البحر غاض عني، ولم أر و ، فلا رىّ بادخار الثماد[3]

أنه لا يرفض فقط أشباه الأشياء، بل هو ينفي بحزم تيمة إمكاناتها وقدرتها علي الإشباع.

إن مثل هذه المعاني المتصلة بالعجز - أو بمحنة فقد البصر - في شعر

---

(١) ديوان سقط الزند ص ٢٢٥
(٢) ق٤/ص ١٤٧٨ أوازم جمع لازم والأزم العض
(٣) ق ٣/ص ١٠٠٢ الثماد / جمع ثمد الماء قليل

السقط تمثل جزءا من موقف أبي العلاء من هذه المحنة، تصور جانبا من هذا الموقف هو جانب وصف المحنة وآثارها علي أبي العلاء، وتصف المفارقة بين حال أبي العلاء وواقع الحياة حوله.

وثمة محور آخر يجمع كثيرا من قصائد السقط ، هو محور تمرد أبي العلاء علي محنة بصره، واستنكاره لما تستتبعه من نتائج سلبية تحدد له حدود حركته الداخلية والخارجية في الحياة، فهو يحتج علي خمول حياة العاجز، وجدب واقعه، يحتج علي تلك الجياد والنوق التي لم يرسلها للخير بعد، أو التي لا يستطيع أن يرسلها أبدا، يتمرد على عجزه عن الحياة ، يقول:

أخمل والنباهة في لفظ ... واقتر والقناعة لي عتاد
وألقي الموت لم تخد المطايا ... بحاجاتي، ولم تجف الجياد[1]

أنه رفض داخلي لمصير داكن، رفض قد يدل علي رغبة متواثبة في الحياة تأبي علي أبي العلاء العيش مائتا، يقول:

ولي منطق لم يرضي لي كنه منزلي ... علي أنني بين السماكين نازل [2]

وكما قلنا فأنه رفض داخلي يتلبس أحيانا روحا غير روح أبي العلاء، حين يستمد القوة من الموروث الشعرى، كالبيت السابق الذي نرى فيه روح أبي الطيب المتنبي واضحة، نرى فيه اعتزازا بالذات غير نابع منها هي،.... أما أبو العلاء فإنه حين يكون ذاته الحقيقية، يصور لنا صراعه بين هذا التمرد، وبين استسلامه لظلام العجز الذي يراه مهيمنا عليه، حاكما رئيسيا لخطواته، يقول:

عللاني، فأن بيض الأماني ... فنيت ، والظلام ليس بفان[3]

أن تمرده وغضبه لم يدفعاه إلي إيجابية تذكر، لم يقفا به علي طريق للخلاص، بل قد انساق كلية إلي اللون الداكن من الحياة، فحين يتصارع داخله بين مدح الحياة – أو الزمان- وذمه- يميل أبو العلاء إلي الذم، الذي هو ناتج شرعي للحرمان والمكابدة والجوع، يقول:

كم أردنا ذاك الزمان بمدح ... فشغلنا بذم ذاك الزمان[1]

---

(١) ق١/ص ٢٨٧ وخد المطايا مشيتها السريعة وكذلك وجيف الجياد
(٢) ق ٢ /ص ٥٢٧ السماكان : الأعزل والرامح.
(٣) ق١/ص ٤٢٥.

خلق العماء تركيب نفسي خاص لأبي العلاء، قوامه تلك الثنائيات المتصارعة فهو محب للحياة، كاره لها - أو ناقم عليها، مشفق على ذاته منكر لانتمائه إليها،طالب للموت خائف منه، عظيم الثقة بعجزه، عظيم الثقة بأدبه وفكره وإمكاناته الأبداعية، لذلك فقد أرهقت روحه تحت وطأة هذه الثنائيات وبدا للنقاد روحا مستوحشة في الحياة[٢] سوداوى المزاج[٣] مرهقا بغربة اقتحمته من الداخل لا من الخارج.[٤]

وهذا يسلمنا إلي جانب آخر من جوانب موقف المعري محنة بصره، هذا الجانب هو النتيجة التي وصل إليها المعري من صراعه مع هذه المحنة وتمرده عليها، وقد أشرنا إليها منذ قليل، هذه النتيجة هي:

" استسلام أبي العلاء للعجز، واقتناعه وإيمانه المطلق بفشل مجاهدته له، خاصة أن تلك المجاهدة كانت تدور في مجتمع لا يقيم وزنا للأرواح النبيلة والنفوس العالية، ويلخص أبو العلاء تلك النتيجة في بيت واحد يخاطب فيه الحياة بقوله:

وظلم أن أحاول فيك ربحا ولم أخرج إليك برأس مال[٥]

وهو لا يعزى فشله إلي الكسل أو التراخي، بل إلي الحياة التي لم تعطه الآلة المادية للجهاد، والتي عطلت قوى خيله ومطاياه فبركا، يقول:

وما نهنت عن طلب ولكن هي الأيام لا تعطي قيادا
فلا تلم السوابق والمطايا إذا غرض من الأغراض حادا[٦]

هذه النتيجة التي استسلم إليها أبو العلاء جعلته يري العجز المادي أعظم دليل علي فوضي الحياة، وافتقادها للمعايير الثابتة، واغتقار أصولها للمنهج،.... أن العجز البدني في رؤية أبي العلاء هو أيضا مسوغ للخوف وافتقاد السكينة في الحياة، يقول:

---

(١) ق١/ص ٤٢٨
(٢) د علي أدهم بين الفلسفة والأدب دار المعارف ١٩٧٨م/ص ٣٦
(٣) اللزوميات تحقيق أمين الخانجي ج١ المقدمة /ص ٣
(٤) د صلاح الرضي الفكر والفن ص ٨٣-٨٤
(٥) ل٢/ص ٢٣٨
(٦) ديوان سقط الزند بيروت ص ١٩٧

لا تأمن الكفّ من أياسها شللا ولا النواظر كفا عنّ أو رمدا[1]

ولا يكف أبو العلاء في شعره عن رفض مبدأ مسئوليته في الحياة واستحقاقه للمساءلة والحساب فيها، فقد اطفأت الحياة نبراسه، بما يسلبها حق محاسبته علي التخبط ، يقول:

إذا تلـــت فوائـــدنا جفينـــا بـــذاك يـــذم أيقنـــه الخلـــيط
ولـــم أوثـــر لمـــصباحي خمـــودا ولكـــن خـــان موقـــده الـــسليط[2]

وكثيرا ما يربط أبو العلاء- في أدبه عامة- بين كف البصر وضعفه في الحياة صراحة وفي غير حاجة إلي التأويل، يقول:

" الحد كليل، والأيد قليل، وبالله اعتصم الضعفاء". [3]

وكثيرا ما يستعير جناح الطائر- كما سنرى في تحليل الصورة والتشبيهات والاستعارات في شعره- ليلحق به الكسر والقصور مصورا حاله، ويقينه من نتيجة العجز، يقول:

بـت أسـيراً فـي يـدي برهـة تـسير بـي وقتـي ، إذ لا أسـير
كطـــائر، قيـــل: ألا تغتـــدي فقـال: أنـي، وجنـاحي كـسير[4]

كذلك يصور ذاته في موضع آخر جملاً" ظهره مثقل"[5] بالعبء عاجزا عن السير، وتارة أخرى فرسا محنية. [6]

ويصور ذاته شديد الظمأ يسعى إلي البئر دون آلة، فحلوه بلا حبل يمده به إلي الماء، يقول:

لبت حول الماء من ظمأ إنّ غربي مالـه مرس[7]

---

(١) ل١/ ص ٢٥٩.
(٢) ل٢/ ص ٧٢.
(٣) الفصول والغايات/ تحقيق محمود حسن زناتي الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٧م/ص ٣٦٨.
(٤) ل٢/ ص ٢٢.
(٥) ل٢/ ص ١٩٦ ويري شارح البيت في هامش الصفحة ان اول البيت " ولنا" بمعني قرب ونعتقد أن الأكثر ملائمة للمعني أن تكون و" لنا" ضمير للمتكلم المنفصل.
(٦) ل١/ ص ١٥٢
(٧) ل٢/ ص ١٩

وصور الماء أو الصور التي تصور صراع أبي العلاء من أجل الماء / الحياة كثيرة في شعره في السقط واللزوم والدرعيات

وفي موضع آخر يعرض أبو العلاء أمامنا مبررات استسلامه إلي محنته الجسدية حيث يصور التناقض بين رغبته في الحياة وبين استعداده لها بإمكانات ثرية حيث تبدو هذه الإمكانات كقامة أهل عاد،- وبين حاله الخارجي الذي يبدو مستحيرا تأمته من قامة الأقزام، يقول

ولقد غدوت بأمة، وبإمة قزميتين، وهمة من عاد[1]

وأبو العلاء لا يري لعجزه شفاء ومخرجا، بل أن أحساسه بهذا العجز يجعله متيقنا من أن كل داء في الحياة له دواء، وكل عثرة لها قيام إلا عثرته:

" أثبت قوادم المهيض، وانتعش العاثر، وجبر الكسير، وأنا علي طريق الكمد مستقيم. "[2]

أن معاناة أبي العلاء من كف بصره تفسر بعض مواقفه في رسالة الغفران- وفي مصنفاته الأخرى- حيث يعمد في هذه الرسالة إلي شفاء كل صاحب عاهة منتهزا فرصة تحكمه الأدبي في مصائر شخوصه ليحقق أحلامه، ويرضي جوعه إلي الحياة السليمة الخالية من العجز لذلك" لا تجد في جنة غفرانه عاهة- من أي نوع- لقد انقلب المجتمع شبانا أماليد، أو حورا عين.... لعله قانون التعويض مرة أخرى. "[3]

وسنري تحكم هذه الرغبة الداخلية الخاصة في كثير من سلوك أبي العلاء في الحياة، في علاقته مع المجتمع، في الأدب والشعر حين يتوجه إلي قضايا بعينها، بل سنري أن محنة فقد البصر لها يد طولي في الناحية الفنية لشعره، حيث تتحكم في اختياره لألفاظ لغته، وصوره وأساليبه، وخصائص إبداعه عامة.

أن تأثير محنة فقد البصر علي أبي العلاء يلخصها قوله:

---

(١) ديوان سقط الزند/ ص ١٩٧

(٢) الفصول والغايات/ ص ٤٣٦

(٣) خليل شرف الدين/ أبو العلاء المعري /ص ١١٧

دنياي: حل لي زاد أستعين به علي الرحيل، فإني فيك محتبس[1]

حيث يكون الحبس هو فلك أبي العلاء الذي يدور حوله، ويحاول الفكاك منه، والذي ينتسب إليه حين سمي نفسه تارة" رهين المحبسين"، وتارة " رهين ثلاث محابس"- في أحد مواضع شعره-، ... لكن أبا العلاء يبدو أمامنا رهين محابس كثيرة تفوق الحصر، أنه كما يبدو من البيت السابق، وغيره – راغبا في الحياة، مهزوما فيها، تدفعه هزيمته إلي طلب الموت أو الرحيل عنها، وهو لا يمتلك القدرة علي الرحيل، لا يمتلك إمكاناته المعنوية التي هي كراهة الحياة وتطليقها طلقة بائنة، فيظل يتأرجح بين كل هذا رهينا له، حبيسا في دائرته، لا يستطيع أن يحسم الأمر متصالحا مع محنته، ولا يستطيع أن ينظر إليها بعين غير بشرية: عين خارجية عادلة محايدة واعية مستشرفة للغيب، عالمة بالمعني الدقيق للخير والشر، المعني غير الظاهري لهما.

وهذا الجانب من موقف أبي العلاء من محنة بصره يسلمنا طواعية إلي مناقشة ما يقال في زهد أبي العلاء وانصرافه- انصراف مقتدر- عن الحياة، هذا الجانب الثالث وهو استسلام أبي العلاء للهزيمة وإيمانه المطلق بعبث مجاهدة العجز ينفي مقولة الزهد هذه، ويبدو أنه يلتبس بها فيخلط بعض الناظرين إلي شعر أبي العلاء بين المعنيين، وإذا كان وصف أبو العلاء لعجزه، وإذا كان عرضه للمفارقة بين جدب حياته، ولمتلاء حياة غيره، وإذا كان تمرده علي العاهة، واحتداده علي نتائجها- إذا كان كل هذا - غير مقنع في نفي مقولة زهده- فأن أبا العلاء يترك لنا في شعره- وفي أدبه عامة- ما يقطع برأي في هذه المسألة:

يصف أبو العلاء الحياة مؤكدا أن فاعلية الإنسان فيها رهن عثوره علي الإمكانات أو البيئة الخصبة المستثمرة لهذه الفاعلية، ... هنا فقط يتحقق وجود الإنسان، أما إذا صادف أرضا غير مثمرة، فإنه لا يستطيع التواجد، مثله مثل الشرارة التي لا تصبح نارا متكاملة إلا إذا وافقت أكلا تتعلق به،.... وحياة الإنسان- كل إنسان- لن تخرج عن أحد هذين الاحتمالين في رؤيته حيث يقول:

مثل الفتي عند التغرب والنوى مثل الشرارة إن تفارق نارها

---

(١) ل٢/ص ٢٢.

أن صادفت أرضا أرتك خمودها أو وافقت أكلا أرتك منارها[1]

وينتقل أبو العلاء من عموم الإنسان إلي عالمه الخاص، فيصف آماله بأنها تشبه النساء المقيدات- أو النائيات- ويتساءل: هل له إمكانية في الحياة الصحيحة، وقد حذف الزمان منه جزءا أصيلا؟

حوائج نفسي كالغواني قصائر وحاجات غيري كالنساء الردائد
إذا أغضب الخيل الشكيم فمالها عليه اقتدار غير أزم الحدائد
وكيف أرجي من زمان زيادة وقد حذف الأصلي حذف الزوائد[2]

ولأن الأصلي حذف حذف الزائد فأنه من العبث محاولة الانتجاع وطلب الكلأ[3] كما يفعل الناس، وبذلك يصبح الجدب ضرورة تلازم حياة أبي العلاء ليل نهار[4] وتتعقبه، فهو يرى من انه طالب الخصب بلا جدوى تهمة السعي إلى الجدب.

ويصف أبو العلاء حالة بأنه أقل مما يريد من الحياة،... ويصف علاقته بهذه الحياة بأنها علاقة مضطربة طرفاها علي نقيض، فبينما هو شجرة ضعيفة تحتاج إلي المد والغيث، تكتفي الحياة بأن تعطي له مظاهر الغيث ومقدماته فقط، من برق وغيم وغير ذلك مما لا يتعدى هذه الحدود، ومن ثم يحتجز المطر عن تلك الشجيرة، وتبقي علي حالها من الضعف والجوع،... يقول المعرى:

دهرى قتاد، وحالي حالة ضؤلت مما أريـــــــد، ولوني لون لبلاب
ولن وصلت فشكري شكر بروقة ترضي ببرق من الأمطار خلاب[5]

وفي إحدى رسائله يفصل أبو العلاء في وصف علاقته المعقدة بالحياة مؤكدا معاناته من الحرمان، وانصرافه انصراف العاجز لا القادر عنها،يقول:

" أن الله عزت عظمته حكم علي بالازهاد، فطفقت من العدم في جهاد،

---

(١) ل١/ص ٣٦٩.
(٢) ل١/ص ٢٦٣ النساء القصائر: المقيدة الردائد : المطلقة
(٣) ل١/ص ٧١
(٤) ل١/ص ٣٩٨
(٥) ل١/ ١٢٣. قتاد : شوك ضؤلت " صغرت وحقرت
بروقة شجيرة ضعيفة تخضر إذا غلمت للسماء ولم تمطر

وتعرضت للدنيا الخادعة تعرض نكل عاجز ، ليس لخطوتها بالمناجز ، فرمحني كرمح الشموس، وقالت لي: عليك بالرموس، ونادت: صاحبي سواك، ولن أبلغ هوالك، وانصرفت كما قيل في المثل: مكره أخاك لا بطل، وحظي من الدنيا العطل، فغفلت برهة ثم أبهت، ونبهني الفكر فانتبهت، وهل يحل أن أكون سائلا له أو مسؤولا، بل هو الأيك أتبعه مزولا، ولكن أحكي المسألة عن غيري، وأن كنت ابتغي بها ميري." (١)

وفي مقدمة ديوان سقط الزند يصف أبو العلاء جرمانه حين يصور امتداد عمره بأنه شجر غير مثمر ، وأن أثمر فورقة غير مجدية، يقول:

" ومد العمر ، فكأنما سنوه السمر ، ويعدم عنده الثمر ، وإنما يجود بدبي ليس بطائل، لا يسمح بقوت العائل." (٢)

ويبعث أبو العلاء إلي أحدهم بهدية متواضعة معتذرا عنها بأن حاله اقل منها(٣) ويقول كذلك في رسائله، نافيا عنه الزهد مؤكدا اضطراره إلي حياة ضيقة ، لا يطمع إلا في اتساعها:

" ورأتني مضطرا إلي القناعة فقالت زاهد، وأنا في طلب الدنيا جاهد"(٤).

وأبو العلاء لا يترك مناسبة للحديث عن هذا الحال إلا انتهزها، ففي موضع آخر يصرح لنا بأنه لم يركن إلي تلك الحياة السلبية- التي ظنها البعض زهدا- ولم ييأس إلا بعد محاولة مضنية للحصول علي الحياة، لكن تلك المحاولة أكدت له أنه لا يصلح لما يريد،.... يقول:

" ما اعتزلت، حتى جددت وهزلت، فوجدتني لا أصلح لجد ولا هزل، فعندها قنعت بالأزل". (٥)

---

(١) أبو العلاء المعرى- رسائل أبي العلاء – تحقيق د. إحسان عباس دار الشروق ط١/ ١٩٨٢م/ د١/ ص ١٠٤.

(٢) شروح سقط الزند/ق١ /ص ٥ السمر شجر شوكه كثير وليس له ثمر دبي من قولنا أدبي الشجر أدباء إذا أورق

(٣) ق٣/ص ١١٤٩

(٤) رسائل أبي العلاء المعرى/ص ٦٠.

(٥) ابن العديم. الأنصاف والتحرى. من تعريف القدماء بأبي العلاء جمع وتحقيق لجنة من رجال وزارة المعارف العمومية وإشراف د طه حسين دار الكتب المصرية ١٩٤٤م/ ص ٥٧٠

وتلك الحياة الضيقة يصفها أبو العلاء في الفصول والغايات[1] بأنها لا تصلح لحيوان ولا تليق به، تاركا لنا تقدير المدى الذي يعانيه إنسان مثله حين يعيشها، وتاركا لنا تقدير حقه في البكاء والضجيج المتولد من الحرمان[2]

يصف أبو العلاء حاله- الذي ظن زهدا - وصفا بارعا في سقط الزند، فيصور نفسه قابعا فوق السحاب،... وتلك الجلسة وأن كانت متسامية نبيلة- تتيح له النظر من أعلي- وتبين لنا تقديره لذاته واكباره لإمكاناتها الداخلية، إلا أنها جلسة تناي به عن المطر والخير والخصوبة يقول المعرى:

كأني حيث ينشأ الدجن تحتى ... فما أنا لا اطلّ، ولا أجاد[3]

من هذه المعاناة يتسلل الإيمان بالجبر إلي قلب أبي العلاء- لا إلي فكره- فيسوى بين مجيئه إلي الحياة دون اختيار أو رغبة، وبين حرمانه منها وعجزه فيها دون جريرة، يقول:

دنياي، فيك هوى نفسي ومهلكها ... والماء يودى بنفس الوارد الصادى

وما قصدتك مختارا، فتعذلني ... فيك العواذل إن حاولت تصدادى[4]

ولا ينكر أبو العلاء احساسه بالحرمان وطراده المستمر للحياة، كذلك لا ينكر محاولته وأد الحياة داخله،- وهي محاولة منطقية كنتيجة لصدها له- ..ووأد الحياة ما هو إلا صراع للنفس ومجاهدتها بشتي الطرق، ...يقول أبو العلاء:

" أسب نفسي، وتسبني، أريد الخير لا يجبني، أحب الدنيا كأنها تحبني والحرص يوضعني ويخبني، والغريزة عن الرشد تذبني... كم استتر وأنا من البغاث " [5]

وقد كان جهاد أبي العلاء الداخلي للحياة مدخله إلي ثنائية ميتافزيقية أخرى،- هي ثنائية الروح والجسد- كما سنرى في الفصل القادم من هذه الدراسة وقد بلغ هذا الصراع حدة جعلت أبا العلاء يتمني أن ينفي عن نفسه أو

---

(١) أبو العلاء المعري الفصول والغايات." في تمجيد الله والمواعظ" تحقيق محمود حسن زناتي الهيئة المصرية العامة للكتاب. سلسلة كتاب التراث ١٩٧٧ ميلادي/ ص ٢٨٣

(٢) السابق / ص ١٦٦.

(٣) ق١/ ص ٢٨٥

(٤) ل١/ ص ٢٧٦

(٥) الفصول والغايات / ص ٢١٦

يستأصل منها ليهرب من ضغوطها.[1]

وتضطرب علاقة أبي العلاء بنفسه، فيي تتأرجح به بين السلام والقتال، فحين تمر عليه لحظة سكينة روحية- لعلها مسحة من نبل الألم وعمق تجربته - يظن أنه قد بلغ ما يريد من هداة الطمأنينة الروحية، والأعراض عن الحياة[2] بما لا يدع مجالا للشكوى من العجز والمعاناة من ضيقه، ثم ما يلبث أن يتبين خدعة نفسه وهزيمته أمامها[3] وأنه إنما يحاول شيئا محالا لأنه يقاوم رغائبه الطبيعية، مخالفا بذلك ناموس الكون الراسخ.

وأن تلمس أبي العلاء لهزيمته، ويقينه بأنها حتمية يرفعان نبرة الغضب في صوته حين يخاطب الحياة أو يتحدث عنها، ويرفعان أيضا نبرة التمرد نمرد العجز والحيرة، فيتظاهر بالقدرة علي تطليق الحياة داعيا كل إنسان إلي هذا المنهج، يقول:

" طلق دنياك فقد فركت، كم طلبت قبلك فما أدركت".[4]

ويرسم للإنسان مسيرته في الحياة، مستمدا من علاقته الخاصة بها منهجا، فيرى أن صلف الحياة لا يناسبه إلا صلف متبادل، وانفصال بلا رجعة، يقول:

تأملنا الزمان، فما وجدنا ... إلي طيب الحياة به سبيلا
ذر الدنيا، إذا لم تحظ منها ... وكن فيها كثيرا أو قليلا[5]

إنها البدايات الناضجة للاغتراب، والمعني المتميز للزهد: زهد العاجزين، المطرودين من الجنان:

تجربة الدنيا وأفعالها ... حثت أخا الزهد علي زهده
والقلب من أهوائه عابد ... ما يعبد الكافر من بده[6]

وليس يستقيم في العقل أن يشكو الزاهد حرمانه، ويضيق بتبتله،

---

(١) السابق/ص ٢٩.
(٢) ل٢/ص ٦٧.
(٣) الفصول والغايات/ص ٣٥٠
(٤) الفصول والغايات/ص ٢٦٨
(٥) ديوان سقط الزند/ بيروت /ص ١٥٩
(٦) شروح سقط الزند /ق٣/ص ١٠١٤

ويغضب من عوامل زهده، بل أن يصف نفسه شمعة تذوب من العوز والاشتعال والموت، لكن المستقيم لنا- والذي وضع أبو العلاء أيدينا عليه وطمأننا إليه- هو أن الواقع المؤلم المستفز المعجز، قد يدفع أحيانا إلي تفضيل الموت،... خاصة إذا خير الإنسان بين الموت، وورود حياض خبيثة، فهو هنا يرد الموت لا للزهد في الطيبات، ولا استغراقا في الحياة الأخرى وطلبا للاثابة، بل هربا مما هو أبغض من الموت،... وبذلك يضع أبو العلاء تصورا خاصا للحرمان ومعانيه المختلفة، يضع مفهومه للموت وللشر وللعجز، ويزيد علي ذلك بأن يحاول من واقع إحساسه بالحرمان أن يرى هذا الزهد الخاص مفيدا، إذ يريح صاحبه، فيحميه من الخوف والشفقة علي النفيس من الأشياء[1].

كما أنه يحدد لنا نوع الجهاد الذي اختاره من مواقع معاناته للحرمان، فهو قد أختار لقاء الموت وفضله على الحرمان، يقول.

إذا أنـا لـم أغـن فـي لـذة ... أسـفت وضـاق علـيّ الفلـك
ولست كموسـي أهـاب الحمـام ... ولكـن أود لقـاء الملـك[2]

ومن هنا انطلاق أبي العلاء إلي قضية الموت التي ستتعقد تأملاته لها بمرور الزمن.

ولعل وصف أبي العلاء للعلاقة بينه وبين الحياة- لعله وصف- يوضح الالتباس الذي شاب هذه العلاقة، وجعل ظاهرها شبيها بالزهد والانصراف الإرادي عن الحياة.

بقي في جانب الزهد- الذي يتصل بمحنة فقد البصر في شعر أبي العلاء- أن نعرض لما نظنه عواملا دفعت إلي إلصاق صفة الزاهد بالمعري، ونعتقد أن للعامل الأول تفسير ما جاء في شعر أبي العلاء- ولأدبه عامة- من تصوير صراعه من نفسه وجهاده لها، بأنه تبتل زاهد، أو نظرة شيخ مريد، لأن هذا النوع من شعر أبي العلاء وأدبه يغري بهذا التفسير، حيث غلبت عليه مسحة الألم النبيل، والمناجاة العذبة، والضعف الإنساني- غلب عليه- الجانب الذكي من النفس الإنسانية: جانب الروح والمجاهدة، والألم والعذاب، والمدافعة للغريزة،... وكل هذا وغيره لا اختلاف علي وجوده، بل الاختلاف علي دوافعه

---

(١) الفصول والغايات/ص ٨٥
(٢) ل٢/ص ١٧٤

وقد مر القول بأنها دوافع العجز والخوف من التجربة والفشل والتعرض للسخرية.

العامل الثاني في اعتقادنا: شعر أبي العلاء الذي يتناول المجتمع بالنقد على اختلاف طوائف هذا المجتمع، طارحا من خلال ذلك رؤى للإصلاح والتقييم والعلاج، وأبو العلاء في هذا اللون من شعره لا يترك حتى قادة الأمر دون تثريب، فهو يري غالبيتهم واقعة تحت سطوة الشهوات فيسميهم بالحراص[1] في تمسكهم بالحياة،- وسنقف وقفة أطول مع موقفه من المجتمع فيما يلي ويغالي أبو العلاء حين يعمد إلي رسم منهج قويم للإنسان في الحياة، فهو يمدح المترهبين، ومن اشتغلوا بالعلم تاركين لهم الحياة[2] ويعتقد أن أسعد الناس، ذلك الذى ينأى بجبل عال ناء عن الحياة برمتها متزودا بالقليل في يده مما يعينه علي العيش[3] ويعتبر كذلك أن السعيد هو من غني عن البعيد[4]، اي عن أي أمنية، وأمن من ترقب الأمال والآتي، أما الدين، فهو " هجر اللذات عن يسر." في اعتقاد أبي العلاء، والتقوى هي الدرع المحصنة.[5]

ونعتقد أن هذا الجانب من شعر أبي العلاء الذي وجهه إلي المجتمع كان مدفوعا بعاملين أولهما: واقع أبي العلاء الشخصي الذي أسقطه- واعيا أو غير واع- علي عموم المجتمع، وأراد- مدفوعا برغبة في المساواة مع الناس- أن يشرك الجميع في حياة واحدة بدلا من تلك الهوة الواسعة بين حياة مثله، وحياة أناس غارقين في النعيم كأولئك الذين ينمهم في شعره،... أما العامل الثاني فهو الفساد الشديد الذي يطالع عين أبي العلاء أينما نظر في المجتمع، هذا الفساد المغالي فيه، المتفاقم، يحتاج إلي أداة جراحة لا إلي مسكنات، يحتاج إلي علاج مؤلم، وإلي دعوة إلي الأصلاح لا تقل عنه في حدتها وتطرفها، لذلك بدا له الإغراق في الشهوات محتاجا إلي النقيض، أو كما قال إلي حياة منعزلة في جبل

---

(١) ل٢/ص ٦٦.
(٢) ق٣/ص ٩٨٨- ٩٨٩
(٣) الفصول والغايات/ص ٢٧٣
(٤) الفصول والغايات/ص ٣٠٧
(٥) الفصول والغايات/ص ٣٠٧

* من الأراء التي اطمأنت إلي زهد أبي العلاء د صلاح رزق صاحب " نثر ابي العلاء" ص ٣٦، ١٠٤ وكذلك د حسن أبو شاويش صاحب شعر ابي العلاء في الدراسات الحديثة ص ٧٧، ٨٢، ٨٤ د كمال اليازجي صاحب أبو العلاء ولزوميته ص ٤٦٥، ٤٧٥

ـاء مع قليل من المؤن، ودعوة الإصلاح هذه مستقاة من انفعاله بحالة الشخصي، ومن التراكمات النفسية التي عاناها من فساد المجتمع المحيط

لكن هذه المواضع من شعر أبي العلاء لا تصلح أبدا للقول بزهده، فلا يستقيم أن نلحق الزهد بتلك النفس التي رأيناها عابسة متمردة علي العجز، ناقمة علي حظها من الحياة، شارطة لوجودها الغيث أو الموت" فالزهد ينبغي أن يكون في جوهره المحافظة علي أشكال الشخصية علي صورتها... ومقاومتها سطوة العالم التي تريد تمزيق الشخصية واستعبادها، مقاومة إيجابية... الزهد هو كفاح الشخصية ضد العبودية ...فهو مقبول بهذا المعني وحده... والزهد المرتبط بالشخصية هو المبدأ البطولي في الإنسان... أما الزهد المستكين الذليل فهو مهانة وسبة... والشخصية تفترض الزهد القادر علي الاختيار والمقاومة... مقاومة شهوات النفس، وشهوات العالم".(١)

فالمعني الوحيد للزهد الحقيقي هو الإيجابية والاختيار، وأيضا الرضا والقناعة، وأبو العلاء لم يعرف أيا من هذه المعاني، بل عرف زهدا خاصا به، هو صورة أخرى من الشقاء، وبديل للموت- المنتظر- بديل الحرمان ونتاجه في ذات الوقت، هو فعل ناتج من القهر أو رد فعل علي القهر، يقول:

ومن يبل بالدنيا وسوء فعالها فليس له إلا التعبد والنسك (٢)

ندرك من كل هذا أن الألم كان المهيمن والحاكم لحياة أبي العلاء المعرى وأنه كان ذا دور عظيم في سلوكه وفكره واتجاهاته النفسية، والألم حين يصطدم بإنسان ما فإنه يجعل منه أحد رجلين فهو " لا يمثل بالنسبة إلي الرجل الضعيف سوي " نفي" تام لكل قيمة، وعلي العكس من ذلك نجد أن الرجل الذي يقوى علي احتمال الألم لا يخرج من التجربة الا أقوي صلابة، وأشد عزيمة، وأصلب عودا، ولا غرو، فأن " خبرة الألم" بالنسبة إليه- هي بمثابة فرصة مواتية لزيادة قدرته علي الاحتمال، وتنمية كيانه الأخلاقي، وتنقية معدنه الإنساني- وإذا كان للألم – في نظره – قيمة خلقية كبرى- فذلك لأن استجابته للمحن والتجارب هي علي النقيض تماما من استجابة الرجل الضعيف المسكين.

---

(١) فؤاد كامل / الشخصية بين الحرية والعبودية / دار المعارف. سلسلة " كتابك" رقم ١٤٠/ ١٩٨١م/ص ٤٢، ٤٣.

(٢) ل٢/ص ١٤٧

وآية ذلك أنه لا يستجيب لضربات القدر بالصراخ والعويل، بل هو يستجيب لها بردود أفعال إيجابية يؤكد فيها ذاته، ويعلن من خلالها رفضه لكل استسلام". (١)

وقد كان ألم أبي العلاء وراء نفيه لكثير من القيم – أو هكذا زعم لنفسه النفي هرباً من نوازع نفسه ورغائبها- فحاول تسفيه قيمة العلاقة بين الرجل والأنثى، وما يستتبع ذلك من نسل وتعمير للكون، وأكد في شعره اعتقاده بخلو الإنسانية جمعاء من مشاعر الصداقة والوفاء والحب، أنكر على كل امرأة حصانتها وعلى كل وليد وفاءه لأبويه، واطمأن إلى أن البشرية إنما يجمعها الدنس والتناحر والحاح الشهوات والمكائد القذرة، وأن الأصل الإنساني فاسد والفروع توابع له في الفساد، أكد على هشاشة الإنسان وضعفه أمام الوجود، وأنه مخلوق غاية في النقصان والسوء والتناهي، وارتاح كذلك إلى أن العبث والعدم وانعدام الغاية، والجبرية- كما سفري- قيم سلبية تهيمن على الوجود بأسره، ... وأبو العلاء في استسلامه لسلبيات الألم التي نفت عنده هذه القيم لا يخرج عن الطبيعة الإنسانية، بل هو يؤكد ناموسا بعينه يرتبط بها، فإنه من " طبيعة الحياة البشرية- فيما يقول علماء النفس- أن تنمو وتتطور، وتترقى محققة ما لديها من إمكانيات تلتمس الظهور، وساعية في الوقت نفسه نحو التعبير عن شتى قوى الإنسان الحسية والانفعالية والجسمية والذهنية الخ، ولكن قد يحدث في بعض الأحيان أن يلتقي هذا النزوع البشرى نحو النمو والترقي ببعض القوى الخارجية التي تحول دون انطلاقه، وعندئذ سرعان ما تستحيل طاقة البناء المعاقة إلى طاقة حيوية هدامة، ولسنا نعني بالإعاقة هنا مجرد عملية قسف أو تعطيل مؤقت، بل نحن نعني بها عملية صد كامل تحول دون استمرار التعبير التلقائي عن طاقات الإنسان الحركية والحسية والوجدانية والذهنية، مما قد يؤدي إلى انحباس الطاقة البناءة ويحولها إلى نوازع هدامة

" النزعة الهدامة" هي في الحقيقة مجرد أثر من آثار الحياة المعطلة المعاقة، أعني تلك الحياة التي لم ينجح صاحبها في التعبير عن نفسه، وبالتالي لم يستطيع أن يكون منها بمثابة المنتج أو المستثمر أو المستفيد "(٢)

---

(١) د زكريا إبراهيم/ المشكلة الخلقية/ مكتبة مصر ط١ / ١٩٦٦م/ص ٢٥١
(٢) المشكلة الخلقية / ص ٢٣٣

وللألم - رغم ذلك - إيجابيات في حياة أبي العلاء، منها أنه أجبره على التأمل، والقراءة الواعية للتاريخ البشري، تلك القراءة التي كان دافعها الأساسي الانتقاص والبحث عن هموم البشرية مواساة للنفس وتعزية لها، كما كان دافعها التفوق المعرفي والظهور على الأقران دفعا لشبهة العجز والنقص، وقد أصبح التأمل جزءا حيا من حياة أبي العلاء إلى حد أن نهمه لم يقف عند تحصيل العلوم الإنسانية[1] بل امتد إلى تحصيل نوازع النفس الإنسانية الحية باحثا فيها عن ذاته، وعن إجابات لما يؤرقه من أسئلة شتى خاصة الإنسان .

دفع الألم أبا العلاء إلى خصوصية الرؤية، ودفعه أيضا إلى روح نقدية فاحصة مبعثها المقارنة بين الذات والعالم الخارجي، والمتأمل للمعاني التي يثيرها أبو العلاء ويرددها في شعره - وأدبه عامة - يجد أنها معان" يغلب عليها روح التحليل والرغبة في الاستنتاج "[2]

الاغتراب الاجتماعي في شعر أبي العلاء:

لم يكن مجتمع أبي العلاء ليساعده على التكيف مع محنة بصره، أو على المعاناة الضيعي معها، لم يكن ليساعده على الخروج من ألم تجاربه الشخصية - بل كان يضيف إلى هذا الألم أصنافا أخرى منه عمقت يأس أبي العلاء من الحياة والأحياء في عمومهم وزادت من إصراره على الركون إلى تفسيره الاستلابي للحياة " وإذا كان التفسير النفسي للأدب يعتمد إلى حد كبير على التحليل النفسي للآثار الأدبية لفهم نفسية الأديب، ودوافعه إلى النفس الأدبي، فإن التفسير الاجتماعي للظواهر الأدبية يقوم على توضيح العلاقة بين الأديب وبيئته، أو المجتمع الذي عاش فيه، فمن الحقائق المسلم بها أن هناك علاقة بين الأديب ومجتمعه، وتؤثر هذه العلاقة بكل ما تتسم به من سلبيات وإيجابيات وتتقمصات في نفسية الأديب، وتبدو واضحة في عمله الأدبي، فإن الأديب حين يتأثر بالمجتمع، ويتخذ لنفسه موقفا فكريا منه فإنه يعكس

---

(١) د/ صلاح رزق نثر أبي العلاء "دراسة فنية لغوية" ص ١٠ [illegible] الآداب العربية/ ص ٣٤

(٢) د صلاح رزق/ نثر أبي العلاء " دراسة فنية لغوية" ص ١٠ [illegible] الآداب العربية / ص ٣٤

فهمه للمجتمع وتأثره به، ومن هنا يعد الأدب تصويرا لهذا الفهم، ونقلا له "[1]" وليس أمرا هينا أن يفتتح أبو العلاء لزومياته بهذا البيت

أولو الفضل في أوطانهم غربـاء تشذ وتنـأى عنهم القربـاء[2]

فحين تفتتح اللزوميات- التي أبدعها أبو العلاء في مرحلة من أخطر مراحل حياته نفسيا وفكريا- حين تفتتح بهذا البيت فإن ذلك يدلنا على مبلغ معاناة أبي العلاء من المجتمع وما وطنه هذا المجتمع من مشاعر سلبية إلي نفسه.

وأبو العلاء في البيت السابق يشير إلي علاقة واضحة بين عزلته المادية التي كتب فيها اللزوميات- وبين شعوره بالاغتراب، هذه العلاقة علاقة سبب ونتيجة.

وغربة الفاضل مبثوثة في أكثر من موضع من ديوان اللزوميات، يلح عليها أبو العلاء ويعتبرها أس بلاء كل إنسان في مثل هذا المجتمع، فيقول:

تعذ ذنوبي عند قوم كثيـرة ولا ذنب لي غير العلا والفواضل[3]

ويقول كذلك:

قد كثرت في الأرض جهـالنا والعاقل الحازم فينـا غريب[4]

وتكرار هذا المعنى في اللزوميات يطمئننا إلي أنه ثمة اختلاف بين حيثيات الاغتراب الاجتماعي في حياة أبي العلاء، وحيثيات هذا الاغتراب في حياة كل من بشار بن برد وأبي نواس وأبي تمام والمتنبي وابن الرومي – وقد مر بنا- فعوامل هذا النوع من الاغتراب عند أبي العلاء هي المعرفة والقدرة علي التحكم في الذات وكبح جموحها، ونعني بالمعرفة شمولها أي معرفة الحياة والدراية النقدية بالواقع المحيط، والقدرة علي الغوص تحت أسطح الظواهر والأشياء والشخوص أيضا، وحالة اللامنتمي" هي في الواقع كونه الوحيد الذي

---

(١) د عز الدين إسماعيل / الأدب وفنونه/ دار الفكر العربي بالقاهرة/ الطبعة الثالثة ١٩٦٥م/ص ٤٤.
(٢) ل١/ص ٣٢.
(٣) شروح سقط الزند/ق٢/ص ٥٢٢
(٤) ل١/ص ١٤٧

يعرف بأنه مريض في حصاره لا تعرف بانها مريضة "[1] والقدرة النقدية هذه يتبعها القدرة علي مواجهه الأزمه، واللامنتمون عامة" يصرحون بأن الطبيعة الإنسانية هي المريضه، وان اللامنتمى هو الإنسان الذي يواجه هذه الحقيقة المؤلمة" [2]

أن أبا العلاء قد أنضجه ألم محنته- محنة البصر - وفرض عليه ميلا إلي استقطاب النقائص في كل شئ حوله طلبا للعزاء والتعويض، فإذا اجتمع هذا الميل الشخصي الحاد إلي ظروف اجتماعية تفرض التوجه إلي النقد اللاذع وتفرض التقاط النواقص- لأنها مليئة بها، أدركنا أي عين ينظر بها أبو العلاء إلي مجتمعه

والمغترب في هذه الحالة يستغرق في نقد المجتمع، لأنه مراقب لذاته من خلاله، ومراقب للمجتمع من خلال ذاته وإذا " تناول الشاعر العوالم الخارجية، أو نظر إلي مجتمعه أو بيئته نظرة ناقدة، فإن هذا العالم وما فيه يتحول لدي الشاعر إلي حالة نفسيه "[3]

وقد تناول أبو العلاء الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والأخلاقية لهذا المجتمع، ووصف شعره بالإلمام بهذه الأوضاع، يقول.

ومن تأمل أقوالي رأي جملا يظل فيهن سر القوم مشروحا[4]

وكما سبق وذكرنا، فإننا نعتقد أن التحولات السياسية للمجتمع، والنظم السياسية له من أهم ما يتناول هذا المجتمع من خلاله، وأن الاغتراب السياسي أول أنواع الاغتراب وأهمها فيما يخص علاقة الفرد بالمجتمع فهو يؤدي إلي غيره من أنواع الاغتراب.

وقد كان القرن الرابع الهجري من أغني الفترات الدالة علي التحول والتوتر علي أكثر من صعيد سياسي واجتماعي" وفي مثل هذا التحول Transformation يصبح ضروريا أن يعيد الضمير الاجتماعي تقييم وتصنيف

---

(١) كولن ويلسون/ اللامنتمي بيروت ١٩٧٩م/ ط١٠/ص ١٩
(٢) السابق /ص ١٩
(٣) د محمد زكي العشماوى فلسفة الجمال في الفكر المعاصر دار النهضة العربية بيروت ١٩٨٠م/ص ٢٣٦
(٤) ل١/ ص ٢١٦

الناس والأشياء بشكل جديد، ونظرا إلي أن المصادر الاجتماعية الجديدة التي تنبثق فجأة يعوزها التوازن، وتظل قيمتها مجهولة، الأمر الذي يجعل الضبط الاجتماعي مفقودا لبعض الوقت، وتصبح الحدود الفاصلة بين الإنصاف والاجحاف، كما تستحيل الرغبات التي تخضع عادة للرأى العام إلي حالة يغلب عليها الجموح وعدم خضوع الهدف والاتجاه ومع زيادة الرخاء تزداد الرغبات، ومع ضياع القيم التقليدية فأن المغانم الأكبر والأغنى تزداد تحفيزا للرغبات، مما يجعل السيطرة عليها أصعب في وقت تصبح الحاجة للسيطرة والضبط أكبر".[1]

في فترات التحول هذه يخضع المجتمع لأسس غير سليمة تسيره، ويقوم علي نظم مشبوهة، وأقيسة تحددها الغرائز والمصالح والتقلبات المزاجية لا العقل والمنطق، ويدرك المغترب وحده هذه الأعماق الأسنة، فهو محترق يراقب عن كثب وعن بعد في نفس الوقت" ويعرف ولسون الامنتمي بقوله: أنه الإنسان الذي يدرك ما تنهض عليه الإنسانية من أساس واه والذي يشعر بأن الاضطراب والفوضوية هما أعمق تجذرا من النظام الذي يؤمن به قومه".[2]

وقد عاصر أبو العلاء تفكك أمور الخلافة الإسلامية، وانفلات أزمتها منها، فقد عاصر حكم بني بويه أو " دولة بني بويه" كما يطلق عليها د. أحمد مختار العبادي[3] وقد حكمت هذه الدولة بلاد فارس والعراق، وكان الخليفة المستكفي أول من ولي الخلافة في ظلالها سنة ٣٣٤هـ وقد عزلوه في بداية توليهم الحكم، تبعه الخليفة المطيع " ٣٣٤هـ- ٣٦٣هـ" الذي ولد أبو العلاء في نهاية حكمه سنه ٣٦٣هـ، ثم عاش أبو العلاء عهد كل من الخليفة الطائع " ٣٦٣هـ- ٣٨١هـ" فالخليفة القادر " ٣٨١هـ- ٤٢٢هـ" الذي انتهت في عهده دولة بني بويه، التي أن كانت بعيدة عن الشام فمن ناحية أخرى نرى أن الدولة البيزنطية قد قوى عودها واشتد بأسها في بعض البلاد الإسلامية الأخري،... وقد توجهت الحركة البيزنطية إلي البلاد الإسلامية مدفوعة بحلم استرجاع بيت

---

(١) د. قيس النورى. الاغتراب مصطلحا ومفهوما وواقعا. مجلة عالم الفكر/ المجلد العاشر. العدد الأول. ١٩٧٩م/ ص ٢٦.

(٢) اللامنتمي. مقدمة الناشر للطبعة العاشرة/ ص ٥.

(٣) د. أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٨٢م، ص ١٦٦.

المقدس واستلاب مكة من أيدي المسلمين كرد فعل علي استيلاء المسلمين علي الأماكن المقدسة بفلسطين" وهناك من يذهب للقول بأن بعض أباطرتهم كان يهدف للاستيلاء علي مشروعاتهم الحربية الجرينة علي حساب القوات الإسلامية المبعثرة في بلاد الشام وشمالي العراق، فاستطاع " نقفوركاس" طرد العرب سنة ٩٦٤م- ٣٥٤هـ من جزيرة قريطش، كما استولى علي عين زربة وسيس من أرض فيلقية وغيتاب ومنبج من بلاد الشام."[١]

وتحتفظ بعض المصادر الأجنبية والعربية برسائل التهديد التي كان يرسلها أباطرة بيزنطية إلي الخلفاء العباسيين، وتحمل هذه الرسائل ملامح القوة والبأس والثقة في الجانب البيزنطي، بينما تجسد ضعف الخلفاء المسلمين وتخاذل الخلافة عامة أمامها، هذا التخاذل الذي دفع أحد القواد المسلمين المنتصرين علي سيف الدولة- دفعه- إلي أن يستنجد بالقوة البيزنطية المحاورة دافعا لها الجزية معترفا بتبعيته السياسية لها[٢] كذلك بلغت المهانة بالخلافة الحد الذي كان كثير من ولاتها يريقون ماء وجوههم علي أقدام بيزنطة طلبا للعفو والرضا والمال، وقد احتفظ التاريخ ببعض أسمائهم، كالأفنكين الذي مارس العاب المهرج أمام " حنا الشميشق" طمعا في أن يسمح له بالاستمرار في ولايته وجمع الخراج منها[٣] وكان عام ٣٦٥هـ - ١٩٧٥م شاهدا علي استفحال النفوذ البيزنطي " علي طول البلاد الشامية، فدفعت له حمص الجزية، واستسلمت بعلبك".[٤]

وبلغ تفكك الخلافة أوجه عام ٩٩٥م- ٣٨٥هـ وكان أبو العلاء قد بلغ الثانية والعشرين من عمره وقتذاك – فقد توقفت حركة الفتح البيزنطية حينما اصطدمت بقوة الدولة الفاطمية الوليدة[٥] وسرعان ما تقاتلت القوتان صراعا علي حلب التي استولي عليها الفاطميون، لكن البيزنطيين سارعوا بالاستيلاء علي حمص وشيزر.[٦]

واضطر باسيل الثاني- القائد البيزنطي- إلي عقد معاهدة مع الحاكم

---

(١) حسن حبش الحرب الصليبية الأولي ط١/ دار الفكر للعربي ١٩٤٧م/ص ٢٣
(٢) حسن حبش الحرب الصليبية الأولي ط١/ص ٢٤
(٣) السابق/ص ٢٥
(٤) السابق/ص ٢٥.
(٥) السابق/ص ٢٥
(٦) السابق/ص ٢٥

بأمر الله الفاطمي[1] حين رأي اشتداد نفوذ الدولة الفاطمية في بلاد الشام- باستثناء انطاكية- عام ١٠٠١م- ٣٩١هـ وقد أوشك المعرى علي اتمام العقد الثالث من عمره- لكن النفوذ الفاطمي أصيب بنكسة عارضة سنة ١٠٢٣م- ٤١٤هـ وكان عمر المعرى إحدى وخمسين عاما حين استقلت أسرة صالح بن مرداس بأمر حلب[2]... وثابت في تاريخ حياة أبي العلاء قصته مع صالح بن مرداس الذي حاصر معرة النعمان بعد حادثة بين أهلها وجنوده الذين أشاعوا الاضطراب والفوضى فيها، وشائع أيضا قبوله شفاعة المعرى لها.[3]

أما عام ١٠٣٨م - ٤٣١هـ وكان عمر المعرى ثمانية وستين عاما فقد ظهر عنصر السلاجقة في الدولة العباسية[4] الذي وفد من سهول آرال علي العراق، وقد تفاقمت قوة السلاجقة حتى استطاعوا الاستيلاء علي القدس والرملة من الفاطميين، واصطنع زعيمهم طغرلبك سياسة الموادعة مع الفاطميين، واستمرت الحروب بين السلاجقة والبيزنطيين محطمة قوى الخلافة الإسلامية التي توافر عليها العنصر الأجنبي في مختلف ألوانه إلي أن سقطت الخلافة العباسية تماما علي أيدي التتار عام ٦٥٦هـ.

أن هذه الأحداث مجتمعة تؤكد أن الخلافة العربية الأصيلة لم تعرف طريقها إلي هذا المجتمع- إلا في النادر من الزمن- مما خلق لونا من ألوان الاغتراب السياسي في المجتمع الإسلامي وقتئذ، هو الاغتراب عن هذه الخلافة والانفصال عنها، وافتقادها، واعتياد الوقوع تحت سيطرة العنصر الأجنبي وعبثه وهمجيته، .... لذلك قر في بعض النفوس الشعور بالصغر والذلة والضآلة والاضطراب والخوف والتهديد الدائمين، وقرت في نفوس البعض الأخر معاني اليأس المطلق من كل قيمة، والإيمان المطلق بلا جدوى كل

---

(١) السابق/ص ٢٦.

(٢) السابق/ص ٢٦- ٢٧.

(٣) من دلائل اضطراب الواقع السياسي في ظل الدولة المرداسية ما حكاه بركلمان عن ابن سنان الخفاجي- تلميذ المعري- في ترجمته له من أنه " كان له أيضا دور سياسي في فوضي الصراع علي السلطة في حلب في منتصف ق٥ هـ ففي المحرم من سنة ٤٥٣هـ ذهب إلي القسطنطينية مبعوثا من حلب وعندما تغلب محمود بن نصر بن مرداس علي حلب عصر الخفاجي بقلعة عزاز وبعد ذلك قتله محمود بالسم في عام ٤٦٦هـ عن طريق وزيره الذي كان علي صلة صداقة بالخفاجي" تاريخ الأدب العربي جـ٥/ص ٤٦.

(٤) الحرب الصليبية الأولي / ص ٢٧.

إصلاح، - بل- لا جدوى كل شئ

لم يكن هذا اللون من الاغتراب السياسي وحده في مجتمع أبي العلاء، بل لقد أدرك المجتمع لونا آخر هو الانفصال عن الحاكم، افتقاد القدوة الراعية أو النموذج الصالح لولي الأمر.

ان أبسط مفهوم للسياسة وأدق تعريف لها هي أنها العلاقة الإنسانية بين الحاكم والمحكوم، بما يحافظ على إنسانية كل منهما ويكفل له وجودا كريما... وقد انتفي هذا المعني عن مجتمع أبي العلاء، ويؤكد شعره هذا - فنرى ولاة الأمر يرعون مصالحهم ويشبعون رغباتهم وشهواتهم، ويأمنون حياتهم وحياة ذويهم تحسبا لأي انقلاب أو غزو أو اي شر متوقع وسط هذا الضجيج من العناصر الأجنبية المختلطة، ووسط فرق ومذاهب داخل المجتمع، فضلا عن الثورات والفتن الداخلية، وبذلك انتفت العلاقة الإنسانية بين الحاكم والمحكوم، لنرى الأول يستبد بالأمر ويمتلك سلطات مطلقة حتى فيما لا يعنيه، ونجد الثاني- المحكوم- محروما من كافة حقوقه السياسية حتى الضرورى منها، يقول أبو العلاء.

فأمير هم نال الإمارة بالخنا ... وتقيهم بصلاته متصيد [1]

بل أن حركات الإصلاح الداخلية لم تسلم من الزيف والسعي للمنفعة الخاصة، لم تسلم من الشبهات والظنون وكأن قادتها أخس من هؤلاء الحكام الظالمين، لأنهم تاجروا بأحلام الناس وسعيهم وراء الحرية والحق، منتهزين نقطة ضعف الناس ليجمعوا من ورائها ثروات أو يفوزا بمقعد ما، ويصفهم أبو العلاء بقوله:

إنما هذه المذاهب أسبا ... ب لجذب الدنيا إلي الرؤساء
غرض القوم متعة لا يرقو ... ن لدمع الشيماء والخنساء
كالذي قام يجمع الزنج ... بالبصرة والقرمطى بالأحساء [2]

لقد عاصر أبو العلاء" الحكم الفردي في احط أدواره، وأضعف أحواله،

---

(١) ل١/ص ٢٤٩
(٢) ل ١/ص ٥٦

فنفر منه أشد النفور، لما نجم عنه من الكوارث والمظالم، دعا الحكام إلي الرفق بالرعية، بل طالب بما للرعية من حق علي الحاكم" [1]

عاصر أبو العلاء التفكك السياسي الذي أحدثه صراع الحمدانيين والفاطميين بالشام، عاصر الحكم المطلق للفرد، والثورات المزيفة، وتبعثر الأمصار العربية كافة، فرأي بعينه تمزق الكيان العربي والمجتمع الإسلامي، واختفاء البطل الثورى من ساحة الخلافة، البطل ذي الرؤية الثاقبة والتخطيط السليم والقدرة علي الثورة الصحيحة، وقد دفع كل هذا أبا العلاء إلي رؤية سوداء لعموم المجتمع الإسلامي، فالساسة الذين يذمهم أذن هم كل أولئك الظالمين، يقول:

ساس الأنام شياطين مسلطة ... في كل مصر من الوالين شيطان
من ليس يحفل خمص الناس كلهم ... أن بات يشرب خمرا وهو مبطان
تشابه للنجر، فالرومي منطقه ... كمنطق العرب، والطائيّ مرطان [2]

ولابد أن يتبع هذا الواقع السياسي المتهرئ خلل في الواقع الاقتصادي وشيوع تنوعات طبقية غير منظمة، فأولياء الأمر في شغل بأنفسهم عن العدالة- التي لا تتجزأ والتي أن اختل ميزانها في ميدان كانت مختلة في الميادين الأخرى،- وفي ظل الاضطراب يستفحل التفاوت الطبقي ويبدو المجتمع أشبه بمسرح هزلى ترتكن فيه بعض الشخوص علي قوى أخرى بعيدا عن أرادتها وفعلها في الحياة، وهنا يكون إيمان من ضاعت حقوقهم بكلمة الحظ والصدفة، ويلجأون إلي كل خرافة ممكنة تعدهم بالسعادة والأحلام بينما يلجأ البعض الآخر إلي الانطواء داخل ذاته للمشوهة، وينضوى صنف ثالث تحت ما هو سائد- أيا كان- معترفا بمشروعيته، طالبا منه النجاة والخير!! وكل هذه الطوائف لم تنج من الانتحار المعنوي... في مجتمع كهذا يشكل الحاكم ومن والاه طبقة عليا في مقابل البسطاء من الناس ومن يدينون بالقيم من أصحاب الدين والعلم، وبهذا يرى أبو العلاء الواقع قد أسس بحق علي انعدام المقاييس، يقول:

---

(١) د. كمال اليازجي. أبو العلاء ولزومياته دار الجيل. بيروت. لبنان. ط١/ ١٩٨٨م/ ص ٤١٤

(٢) ل٢/ ص ٣٤٥.

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحته ... فقير معرّى ، أو أمير مدوّج
وقد يرزق المجدود أقوات أمة ... ويحرم قوتا واحد وهو أحوج
فعج يدك اليمني لتشرب طاهرا ... فقد عيف للشرب الإناء المعوج[1]

ويري أبو العلاء أن انعدام المقاييس والخلل في الواقع الاقتصادي وفي الواقع ككل- يرى هذا كله- عجزا معنويا يضاف إلي عجزه الجسدي ويهدد سعيه في الحياة بالفشل، ففي ظل هذا المجتمع لا يتحكم المنطق في حياة الناس، يقول:

قد يدأب الرجل المنجوز مجتهدا ... في رزق آخر، لم يلمم به النجد[2]

لذلك يلقي أبو العلاء جزءا كبيرا من حرمانه علي عاتق هذا المجتمع، الذي تكدس في ضميره الخداع والظلم والتحايل القذر علي المكاسب،دون استحقاق:

شغل السعادة عنك أهل ممالك ... رزقوا الذي حرم الكرام وسادوا
رقدوا، ولم ترقد، ونالوا ما ... وعجزت عنه، وللكيان فساد
ابتغوا ... ضمن الفؤاد يساء حين يساء
ومن المعاشر من يظل كأنه ... أرواحهم فكأنها أجساد
خمدت خواطر منهم وتكاثفت ... وسد، وبت وما لديك وساد[3]
مهدت لهم فرش، وبات لديهم

في مثل هذا المجتمع يري المعرى الأساد ترهب صاحب الحظ[4]، ويرى الخمول درعا حافظة لصاحبها[5] أما صاحب الحق فهو لهله يجهد نفسه في صراع هذا العالم الممتزج[6] أما المغترب فيفقد كل ثقة له في هذا العالم ويهزأ من كل قيمة فيه:

---

(١) ل١/ص ١٩١
(٢) ل١/ص ٢٣٥
(٣) ل ١/ص ٢٥٠، ٢٥١
(٤) ل١/ص ٢٥٠، ٢٥١
(٥) ل١/ص ٢٦٣
(٦) ل١/ص ٢٠٨

أقعد فما نفـع القيـام م ، ولا ثني خيرا قعـود[1]

ويضع أبو العلاء أيدينا علي عامل من عوامل التزامه بما لا يلزم في الحياة- ومن ثم في الشعر- حين يقول:

ووجدت نفس الحر تجعل كفّه صفرا، وتلزمه بما لا يلزم[2]

وبذلك هو ينفي أيضا مقولة زهده مؤكدا أن معاناته نتاج عجز ذاتي وعجز خارجي،- هو عجز المجتمع- عن أن يكون سويا صحيح البنية،... لكن هذا الحر الذي أشار إليه أبو العلاء لا يسلم من معاناة أخرى هي لوم المجتمع له وازدراؤه لسلوكه[3] فهو يواجه أكثر من صراع مع ذاته وأكثر من صراع مع المجتمع.

ولم يكتف أبو العلاء بالشكوى،- أو لعله لم يبدأ بها قبل أن يحاول إيجابية ما،- فقد طرح في شعره بعض الحلول وكلها لا تخرج عن أهاب الدين الحنيف الذي تكاملت فيه طرق المعاملات بين الناس، واحتوى نظاما مثاليا عادلا لتوزيع الأموال بين أفراد هذا المجتمع، فعرض أبو العلاء ارتياحه لهذا النظام وشوقه التي اتباع فرض الزكاة الإسلامي بصدق وإصرار ،يقول:

وأحسب الناس لو أعطوا زكاتهـم لما رأيت بني الأيام شاكينا[4]

ولا نعتقد أن أبا العلاء الوحيد الذي طرح حلولا إيجابية لمثل هذه القضايا، ولا نحسب أن المجتمع قد استجاب إلي مثل هذه النداءات الصادقة، لأن هناك أناسا يضيرهم كل الضير أن يتمثلوا العدل، لأنه أن طبق حرمهم من الترف والجاه وتصعير الخد،... فإذا كان الاغتراب الاقتصادي عند ماركس يعني اغتراب العامل عن إنتاجه الذي لا ينعم به، ويعني أيضا اغترابه عن صاحب المال للهوة التي بينهما- إذا كان هذا هو معني الاغتراب الاقتصادي،- فهو معني موجود في عصر أبي العلاء لأن عامة الناس وبسطاءهم لم يكونوا متمتعين بما يتمتع به سواهم مما أوجد تفاوتا طبقيا، وأغار بعض الصدور علي بعض، وهذا الواقع الشائه من دواعي اشتهاء الموت عند أبي العلاء- والتي

---

(١) ل١/ص ٢٥٢.
(٢) ل٢/ص ٣٢٤.
(٣) ل٢/ص ٤١٤.
(٤) شروح سقط الزند / ق ٢/ص ٥٣٨

سنناقشها في حينها،- كما يقول.

فيا موت زر أن الحيـاة ذميمة ويا نفس جدّي إنّ دهرك هازل[1]

اضطراب الحياة الدينية في عصر أبي العلاء:

أن هذا الاضطراب عامل من عوامل إفساد الحياة السياسية وخلل الواقع الاقتصادي، كما أنه – أي هذا الاضطراب- نتيجة لهما معا- في ذات الوقت،- فاضطراب الحياة الدينية يعني اضطراب كثير من القيم والمفاهيم الدينية، وهذا الاضطراب يستتبع ضعف أثر العقاب والثواب في كثير من النفوس، بل يستتبع قابلية هذه النفوس للتحلل والإفساد اعتمادا علي الخلط الذي اجتاح الحياة، وطمس معالم الحقائق فيها، كما أن الحياة الشاقة والابتلاءات العنيفة تدفع بعض النفوس إلي هجر العقيدة ظنا منها أنها تنجو حين تتسع رقعة احتيالها علي الرزق، بما لا يتفق مع جوهر الدين.

وقد تناول أبو العلاء الحياة الدينية في عصره بنقد عنيف أوغر عليه نفوس قومه وجلب عليه ظنونا – سنتناولها بعد قليل- ولم ينج من نقده أحد من الأفراد أو المذاهب والفرق أو أصحاب الديانات المختلفة، فحين نظر إلي الأفراد في عمومهم وإلي فهمهم للدين، رأي أن الدين عندهم لا يعني سوى قضاء ساعة من ساعات الحياة يعهد إليها بغسل الخطايا ويعتمد عليها في ذلك، مع استمرار الحياة الماجنة، بلا حرج يقول:

خوى دنّ شرب فاستجابوا إلي التقى وعيسهم نحو الطواف خوادى[2]

فالدين ليس إلا ممارسة عابرة عند استعصاء المجون عند هؤلاء، أو ملجأ لقضاء الفراغ، أن مثل هذه النفوس يصفها أبو العلاء بأنها كالحجارة[3] لأنها ليست جاهلة بأثمها، بل هي عالمة به تمام العلم مع عدم تهيبها له ، يقول:

---

(١) ق٢/ص ٥٣٨

(٢) ل١/ص ٢٦٨.

(٣) ل١/ص ١٥١، ١٥٢

ما للأنام، وجدتهم من جهلهم بالدين أشباه النعام أو النعم
فمجادل وضع الجدال وقد درى أن الحقيقة فيه ليس كما رعم[1]

والمغترب يصعب عليه أن يجد لغة تفاهم مشتركة مع أمثالهم، بل أن رفضه للواقع الذي يضمهما معا، يبدو حتى في اجتماعه بهم واستماعه إلي ترهاتهم، بل أن هذا الاجتماع ليوسع من دائرة الانفصال بينهما، ويعظم من فزع أبي العلاء منهم، يقول:

وما قبلت نفسي من الخير لفظة وأن طال ما فاهت به الخطباء
تفزع أعرابية أن جرى لها نواعب يستعرضنها وظباء[2]

والدين في مثل هذا المجتمع متجر ميت لا يرجو منه أحد كسبا ولا يلقي اهتماما ورواجا:

والدين متجر ميت فلذاك لا تلفيه في الأحياء ألا كاسدا [3]

في هذا الواقع لا يستغرب أن يلحد السيف بعد التوحيد[4] لا يستغرب هذا فأمام القوم ذاته- كرمز يشمل كل المجتمع- يتكتم أمر الفاسدين ويتواطأ معهم ويبارك سعيهم:

علم الأمام – ولا أقول بظنة أن الدعاة بسعيها تتكسب[5]

فالأمام مثل السادة والقادة لا يولي أمرا ما اهتماما إلا إذا اتصل من قريب أو بعيد بمقعد حكمه،... ويعمم أبو العلاء هنا الحكم علي الجميع، فلا يستثني رجلا واحدا من رجال الدين في عصره، بل ينفي النسك والتقوى عن الجميع، مؤكدا أن الأطماع[6] وأن السباحة في الخنى هي حياتهم[7] وأن

---

(١) ل٢/ص ٣٣١.
(٢) ل١/ص ٣٦.
(٣) ل١/ص ٢٥٥.
(٤) ل١/ص ٢٧٨.
(٥) ل١/ص ٨٥.
(٦) ل١/ ٨٦ وذات المعني في زجر النابح ص ١٦
(٧) ل١/ ٢١٦ وذات المعني في ل١/ص ٤٠١ وفي زجر النابح ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦

الاحتيال علي أخذ الاتاوات هو ما يسعون إليه[1]

الدين في مجتمع ابي العلاء- كما يقول في شعره- ليس هو هذه العقيدة التي تملأ الكيان الإنساني ثقة وسكينة وانتماء، بل هو ·ارث متنقل تترجمه الطقوس المادية الخارجية فقط، أما الجوهر فملغي، أنه دين يتوجه إليه بلا قصد أو إخلاص! يقول أبو العلاء، ناسبا إلي المجتمع لونا من الجاهلية أو صورة من صورها:

عاشوا كما عاش آباء لهم سلفوا ... وأورثوا الدين تقليدا كما وجدوا

فما يراعون ما قالوا وما سمعوا ... ولا يبالون من غي لمن سجدوا[2]

ويزيد أبو العلاء مرارة، تناحر الفرق الفاسدة المغرضة، وأصحاب الأفكار الساذجة الواقفين عند القضايا التي لا تغني ولا تسمن من جوع، ولا تتعلق بجوهر الدين أو بعلاقة الإنسان بخالقه، فيتوجه أبو العلاء بالسخرية إلي القائلين بالتناسخ[3] والمعطلة[4] والملاحدة المتسترين بالتشيع وغيره[5].... ويبدو أن الالحاد في عصر أبي العلاء لم يكن مستغربا مما دعاه إلي الإلحاح علي محاورة الملاحدة في شعره والتوجه إليهم بالنصح والجدال.[6]

كذلك نرى في هذا الشعر وصفا لبعض الدعوات الإباحية التي تحلل كل المحرمات[7] غير عابئة بنواهي الدين وأوامره، أما الطامعون في كل عرض وشهوة، فما أكثر وجودهم في شعر أبي العلاء.

وقد لفتت كثرة الزنادقة أيضا نظر أبي العلاء، ورآهم عنوانا لمجتمعه الذي يلخص بسيرته المعني اللغوي للزندقة: التظاهر بالولاء لشئ واضمار الولاء لنقيضه، يقول أبو العلاء:

تستروا بأمور في ديانتهم ... وإنما دينهم دين الزنـاديق

---

(١) ل١/ص ١٧٥
(٢) ل١/ص ٢٣٥.
(٣) ل١/ص ٢٢٥
(٤) ل١/ص ٢٢٦.
(٥) ل٢/ص ٩٧
(٦) ل١/ص ٢٥٤
(٧) ل١/ص ٤٢٧

بهذه الدقة أطلعنا أبو العلاء- لا علي اهتمامه بالحياة الدينية لمجتمعه فقط- بل أطلعنا أيضا علي بعض عوامل اغترابه عن هذا المجتمع، لكن تناوله الشعرى لهذه الحياة الدينية- وغيرها من الجوانب الأخرى للحياة الاجتماعية في عصره- كان يلقي الضوء علي أصحاب الأهداف القذرة، والنفوس المعوجة، وهؤلاء لا يرغبون في مثل لسان أبي العلا الحرى، ولا يعقل أن يتركوا هذا اللسان طليقا، فاتهم أبو العلاقة بالزندقة، واتخذت أشياء من سيرته في الحياة دليلا علي هذه الزندقة، ككراهته لأكل اللحوم وكل ما هو حي من الطير والحيوان وما ينتج عنهما، كذلك كان ما رأيناه قبل ذلك من نظرات خاصة دقيقة إلي بعض أمور الدين كان من أدلة قادحة في عقيدته.

وقضية اتهام أبي العلاء بالزندقة ليس مما يهمنا في هذه الدراسة، ولسنا نهتم بتبرئته أو أدانته من خلالها، لكنها تتصل بشكل قوى باغترابه الاجتماعي وتبسط أمامنا مدى الفجوة بينه وهذا المجتمع... أن شعر أبي العلاء بصفة خاصة يؤكد لنا امتلاكه لعقيدة سليمة وإيمان حقيقي، وتسليم صحيح بأركان الإسلام، يقول المعرى:

أثبت لي خالقا حكيما ... ولست من معشر نفاه[2]

نطالع في شعره الحديث عن ماهية الله تعالي[3] وعظمته، ووجوده المهيمن[4] وقدرته علي المنع والعطاء.[5]

ومفهوم الإيمان عند أبي العلاء سليم، إذ انه في أساسه تقي وتأديب للنفوس[6] حتى يصل الإنسان إلي المرتبة التي وصل إليها أبو العلاء حين رأي أن الصلاة أجل ما يملك في الحياة[7] وأن القرآن شفاء حقيقي للنفس المتعبة[8]

---

(١) ل٢/ص ١٤١
(٢) ل١/ص ١٧٥
(٣) ل١/ص ٩٤
(٤) ل١/ص ٥٣
(٥) ل١/ص ١٥١
(٦) ل١/ص ١٣٣
(٧) ل١/ص ١٧٣
(٨) ل٢/ص ١٥٨

وأن الحياة السليمة هي حب الحياة الدنيا وحب الحياة الأخرة والعمل لكليهما معا[1] عملا بحديث الرسول صلي الله عليه وسلم، وهذا الإيمان لا يمنع من خشية ملاقاة الله[2] ولا يدفع بالمؤمن إلي التقدم الراسخة بحسن ما عمل وحسن الجزاء الذي ينتظره بما قد يدفعه إلي التواكل والغرور، بل هو دافع إلي مزيد من الخشية والترقب، فيقول المعري:

إذا راكب نالت به الشاو ناقة ... فما أينقي إلا الظوالع والحسرى
وان أعف بعد الموت مما يريبني ... فما حظي الأدنى ولا يدي الخسري[3]

وهذا الإيمان يدفع إلي نوع راق من الاطمئنان، هو الاطمئنان إلي عدل الله، مع السعي إلي رضائه:

ليفعل الدهر مايهم به ... إنّ ظنوني بخالقي حسنة[4]

نظر أبو العلاء إلي الإسلام نظرة إلي دين سمح متسع كريم، دين تحافظ قوانينه علي كرامة الإنسان وإرادته، وتحافظ علي حياته أيضا، فهو دين لا يدعو إلي التهلكة، حتى ولو كان المؤدى إليها الإفراط في العبادة، دين يرى العمل عبادة، ويري تعذيب النفس من الكبائر العظمي، لذلك لم يتورع أبو العلاء عن أن يدلي ببعض الآراء الجريئة في أمور الدين منطلقا من هذا المفهوم له، فأنكر حج المرأة في ظل مجتمعه الذي تملؤه عصابات الطرق متعرضة للحجاج بالقتل والسرقة وسبي النساء وإضاعة كرامتهن[5] أنكر هذا الحج لأن الحج في الإسلام مشروط بالاستطاعة، وهذه المخاطر تلغي الاستطاعة وتجعل من هذه الفريضة طريقا للانتحار أو العذاب وهو ما ينتفي عن طبيعة الهدف السامي لفروض الدين، كذلك سخر أبو العلاء ممن لا يقيمون جوهر الدين ويظنون أنهم بمنجى من الحساب حين يقيمون شعائره الظاهرية كتقبيل الحجر الأسود وغير ذلك[6]

وقد اتهم المعرى بإنكار النبوات بينما يمتلئ شعره بمواضع يعنف فيها

---

(١) ل٢/ص ١٤٢
(٢) ل١/ص ١٦٩.
(٣) ل١/ص ٦٩
(٤) ل٢/ص ٣٦٧.
(٥) ل٢/ص ٣٢٥
(٦) زجر النابح /ص ٢٧.

من أنكرها، ويوصي بقتلهم علانية لأنهم مفسدون في الأرض[1] ويتوجه إلي الأنبياء بالمديح والإجلال والإعزاز و لإيمان الواجب علي كل مسلم[2] أما آدم عليه السلام فقد تعرض المعرى لقصة عصيانه لربه- وهي واردة في القرآن- واتخذها مدخلا فنيا يعرض من خلاله رأيه في جبلة الناس المفطورة علي العصيان والإفساد والطمع في الحياة[3] وحين تعرض للغيبيات لزم أبو العلاء حدود الإنسان المؤمن بالله المصدق لما يقول ويعد[4] محذرا من البحث الجدلي في أمور الغيب لأنه جنون وكفر لا يؤديان إلي يقين[5] أو سكينة.

وإذا صح في العقل أن يكون مجتمع أبي العلاء قد جهل مثل هذه المواضع من شعر أبي العلاء التي تصور عقيدته الدينية السليمة- إذا صح هذا- فإنه لا يصح في العقل أن يكون قد جهل بعض مؤلفاته التي وظفت لقضايا الدين مباشرة، فقد كتب أبو العلاء في القراءات: " تظلم السور"[6]و" عظات السور"،و" تضمين الأي" ،" دعاء الساعة"،" ووقفة الواعظ" و" سجع الحمائم"[7]، وألف في الخطب " خطب القرآن" و" خطب السنة" وسيف الخطبة[8] ونظم في هذا الأغراض شعرا مثل قصائد" استغفر واستغفرى" وملقي السبيل الذي جمع فيه بين الشعر والنثر.

والذي يعنينا من كل هذا ليس عقيدة أبي العلاء في حد ذاتها – فمجالها ليس في هذه الدراسة – ولكن يعنينا ارتباط هذه القضية بعلاقة المعري بمجتمعه ، أن مثل هذه العلاقة تؤكد انعدام الثقة بين الطرفين، وانعدام التوجه الوجداني والفهم المتبادل، وقد تزايدت حدة الانفصال في نفس أبي العلاء إلي حد أنه شعر بأنه مستهدف من المجتمع مهدد فيه بخطر التلوث أو التلوث باللون الساند، مهدد بفقد الماهية، يقول:

---

(١) ل١/ص ٨٠- ٨١.
(٢) ل٢/ص ٤٥.
(٣)زجر النابح. ص ٩٩ إلي ص ١٠٢.
(٤) ل٢/ص ٣٧٦.
(٥)زجر النابح/ ص ٤٧، ٩٨، ١٢٠
(٦)ابن العديم. الأنصاف والتحرى من تعريف القدماء بأبي العلاء/ ص ٥٣١.
(٧) السابق/ ص٥٣١ .
(٨)السابق / ص ٥٢٩، ٥٣٠

وأردتموني أن أكون مدلسا هيهات غيري أثر التدليسا[1]

وقد أغلق أبو العلاء علي المجتمع باب الأمل في التوبة، وادعاء الفتره علي النفس وشهواتها، حين عرض في بيت واحد مفهومه الخاص للدين، يقول

هل الدين إلا كاعب دون وصلها حجاب ومهر معوز وحياء[2]

كذلك حدد مذهبه وأكد أن دينه هو دين الفطرة السليمة، والتتره عن كل شبهة:

وإن سألوا عن مذهبي فهو خشية من الله لا طوقا أبث ولا جبرا[3]

وكان هذا الواقع الديني المتهرى دافعا إلي العزلة النفسية والمادية، حيث تكون الطهارة هي التوجه إلي الداخل، هي الانطواء علي النفس واعتزال المجتمع، ويكون الدفء هو الاتصال، أما الآخرون فهم الوحشة والاغتراب والماهية المشوهة، يقول المعرى:

إذا حضرت عندى الجماعة أوحشت فما وحدتي إلا صحيفة ايناسي
طهارة مثلي في التباعد عنكم وقربكم يجنى همومي وأتناسي[4]

الحياة العقلية غير المشبعة عامل قوى للاغتراب الاجتماعي:

أن مجتمع القرن الرابع الهجري كان يزخر بكل ألوان العلوم والفلسفات والآداب الإنسانية المختلفة، وسائر أنواع المعرفة، فقد اشتهر هذا العصر- بعامة- بحياة علمية واسعة أوجدت عقولا فذة في مجالات مختلفة، لكن أبا العلاء لم ير في كل هذا ما يشبع عقله وفكره لأنه لم يخرج منه بما ينتظم المجتمع كله في طياته وبما يصلح الخلل القائم، كانت الحريات العقلية في الغالب مشروطة بأهواء الحكم وقيود المعيشة.

وجد أبو العلاء بغيته فيما أتيح له من علوم العصر وثقافته، فنهل من

---

(١) ل٢/ص ٣٢
(٢) ل١/ص ٣٦
(٣) ل١/ص ٣٤٨
(٤) ل٢/ص ٣٥

دروس الجغرافيا والتاريخ والفقه وعلوم النحو واللغه والاداب والقراءات والسير والفلسفات المختلفة،... وغير ذلك مما زخر به عصره، وكان عقله نتاج هذه العلوم مضافة إلي طبيعة حياته الخاصة ونوع نظرته إليها، وهدفه منها، وقد أعانه هذا النتاج الثقافي علي أن ينظر في التاريخ البشرى مستخرجا منه ما شاء من دلائل تفسر طبيعة الإنسان تفسيرا يتفق وحياته النفسية، تلك الحياة التي خلقتها محنة فقد البصر.

رأي أبو العلاء الحياة الإنسانية كلها مثيرة للتساؤل والبحث والرؤية الجديدة والإضافة، ورأي تاريخ الإنسان ومعارفه في عمومها قابلين للجدل والقياس والتأمل، ولعله أضاف بهذا إلي نفسه تميزا واضحا فاشتهر بالمعرفة الواسعة والعقل الذكي والقدرة علي الاستيعاب والتقنين والتفسير.. ونرى في شعره ما يدل علي هذا كله، حين يصف نفسه قائلا:

يزورني القوم، هذا أرضه يمن ... من البلاد، وهذا داره الطبس
قالوا: سمعنا حديثا عنك قلت لهم ... لا يبعد الله إلا معشر لبسوا
يبغون مني معني لست أحسنه ... فإن صدقت عرتهم أوجه عبس[1]

أن البيت الأخير يؤكد أيضا أن هناك صداما عقليا بين أبي العلاء ومجتمعه، هذا الصدام يضطره إلي الصراع بين مسايرتهم بما لا يعتقد أو الارتطام بهم حين يجهر بما لا يحبون.

أن المناخ العقلي لمجتمع أبي العلاء تسيطر عليه عقول تقدس السائد وتخشي التناول الحر للأشياء، عقول ضحلة سانجة، لا تعرف القراءة الدافعة إلي الوعي ومن ثم إلي التغيير، يقول أبو العلاء:

كأنّ كهول القوم أطفال أشهر ... تناغت وأكوار القلاص مهود
إذا حدثوا لم يفهموا، وإذا دعوا ... أجابوا وفيهم رقدة وسهود
لهم منطق الأنس المبين وإنما ... علي العيسي منهم بالنعاس فهود [2]

أنه مجتمع يخشى الحرية والتغيير والمسئولية، ويطمئن إلي الركود

---

(١) ل٢/ص ٢٣، ٢٤.
(٢) ل١/ص ٢٣١.

والجبن العقليين، مجتمع يصفه المعرى بأنه مصاب بالفراغ العقلي، وهو أخطر ما يصيب الأمم[1] ويصفه أيضا بأنه لا يطلب من المعرفة إلا أن تكون وسيلة للشر لا للخير، بل هو مجتمع يرتكن إلي أمور الدجل والشعوذة ويسلم قياده إلي الأفاقين[2]

وأن قصة أبي العلاء المعرى مع داعي الدعاة الفاطمي لخير ما يمثل الاغتراب العقلي لأبي العلاء، فقد كان داعي الدعاة نموذجا أو رمزا لهذا المجتمع الذي يخشى حرية الفكر ويخشى كل صوت ينبش في الساند ويستخرج منه ما يتفق معه وما لا يتفق، وقد كانت الرسائل بين الداعي وأبي العلاء محورها الظاهري ما أشيع عن أبي العلاء من ترك أكل لحوم الطير والحيوان، وكان الداعي يجتهد كي يثبت زندقة أبي العلاء ويضيق الدائرة عليه متهما أياه بتحريم ما حلل الله ويتهمه وادعاء القدرة علي الافتاء في الدين دون حق أو علم، وقد تجاهل الداعي من أجل هذه الرغبة عن النظر إلي حياة أبي العلاء ومحنة بصره ليفسر بهما ما شاء من سلوكه وفكره ، ورغم إيمان أبي العلاء بقضيته واطمئنانه إلي براءته من مثل هذا الاتهام، ورغم قدرته المعروفة علي الحوار والجدل والاستشهاد فقد كان يقف موقف المدافع الخائف المستضعف، وكان يتحايل علي ما يريد من معان يعلم أنها صحيحة- أو علي الأقل غير ناتجة عن شر وغير متوجهة إلي الشر-" وبذلك حكم علي الجواب أن يكون مقيدا بالحذر، ولم يكن مع من يحاوره علي مستوي واحد".[3] .

وإذا كانت قصة أبي العلاء مع داعي الدعاة مثالا لما ذاقه من الاغتراب العقلي في مجتمع الشام، فان لأبي العلاء أكثر من وقفة في مجتمع العراق تشير إلي ذات اللون من الاغتراب.

أولي هذه الوقفات: صدام أبي العلاء مع الشريف المرتضي في مجلسه ببغداد، وكان سبب هذا الصدام الاختلاف حول قيمة المتنبي فنيا[4]، حيث تحيز المعرى للمتنبي واعتبره شاعرا كبيرا وذكر إحدى قصائده كشاهد لحديثه

---

(١) ل٢/ص ٤٢٣

(٢) ل٢/ص ٢٩٥

(٣) رسائل أبي العلاء المعرى تحقيق وتقديم د إحسان عباس ص ٨٥، ٨٦، ٨٧

(٤) كارل بروكلمان. تاريخ الأدب العربي الجزء الخامس ترجمة د رمضان عبد التواب، مراجعة د السيد يعقوب بكر الطبعة الثانية دار المعارف/ ١٩٧٧م/ ص ٣٦

وهي." لك يا منازل في القلوب منازل"،.. وقيل أن المرتضي فضلا عن كراهيته للمتنبي. فانه قد فطن إلي إهانة أبي العلاء له باختيار هذه القصيدة، حيث أراد غمزا - أن يسبه بهذا البيت من القصيدة:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

وقيل أن المعرى سحب من رجليه في مجلس المرتضي وطرد إلي الخارج،.... فإذا بدت لنا تلك الأقاويل مغالاة، قلنا أن القصة تشير إلي حدث رئيسي علي الأقل هو غضب المرتضي من تفضيل المعرى للمتنبي شاعرا، وتشير إلي أن هذا الغضب كان واضحا قابلا للمزايدة من الرواة، وهذا الغضب يشير إلي أن هذا المجتمع كان يخضع للاستبداد بالرأى، للتسلط والتحكم، وهيمنة الفرد علي النواحي المعرفية لا السياسية والاقتصادية فقط وهيمنة الثبات علاى التفكير .

الوقفة الثانية لأبي العلاء، هي ما حدث له في أحد مجالس العلم ببغداد حين اصطدم برجل جالس فبادره قائلا" من هذا الكلب" فأجاب أبو العلاء من فوره: الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسما[1].

أن إجابة أبي العلاء تتعدى الدلالة علي الرغبة في تعويض الذات عن فقد البصر، وتتجاوز معني الإغاظة لتدل علي ما هو أهم:، علي تحدى أبي العلاء للمجتمع ووعيه بالفجوة العقلية والمعرفية الواسعة بينه وبين هذا المجتمع، تلك الفجوة مسافتها ذات المسافة بين الاسم الواحد للكلب والسبعين اسم له،.... أن هذه الإجابة دلالة علي اختلاف لغة كل من الطرفين المتصارعين هذا الاختلاف الذي أدرجته علوم الفلسفة وعلوم النفس تحت ما أسموه بالفوارق المعرفية بين المغترب ومجتمعه.

وعلي الرغم من هاتين الوقفتين لأبي العلاء في مجتمع العراق، إلا أن هذا المجتمع يبدو في شعره ورسائله- وكثير من مصنفاته- أكثر ملاءمة عقلية له ، يبدو له المجتمع / الحكم الذي كان يامله ، وعند عودته من العراق وفي رسالة إلى خاله أبي القاسم بن أبي سبيكة يقول أبو العلاء" منذ فارقت العشرين من العمر، ما حدثت نفسي باجتباء علم من عراقي ولا شام"[2] ولكنه يؤكد في

---

(١)الأنصاف والتحرى. من تعريف القدماء / ص ٥٤٣.
(٢) السابق/ ص ٨٩.

دات الرسالة أن الذي أثاره إلي العراق " مكان دور الكتب بها "

وقد بهره العلم في بغداد حيث وجده" أكثر من الحصي عند جمرة العقبة، وأرخص من الصيحاني بالجابرة، وأمكن من الماء بخصارة، وأقرب من الجريد باليمامة "(٢)

كانت بيئة العراق ترضي الجانب العقلي في أبي العلاء أكثر من غيرها نستشف هذا من وصفه لها في إحدى رسائله، يقول

" فهذه مناجاتي أياهم منصرفي عن العراق، مجتمع أهل الجدل" (٣) أن أبا العلاء وجد في العراق مناخا عزيزا لديه: مناخ الجدل، الذي يتلاءم معه لأنه انعكاس لصراعه مع نفسه، واصطدم نفسه بالخارج، الجدل صراع والتحام مع آخر، والصراع تعويض عن الحركة عند أبي العلاء كمان هذا المجتمع يناسب عقليته الثائرة ،يقول:

" وحدث بغداد كجناح الأخيل، حسن، وليس فيه ما حمل". (٤) ولا ينفك يؤكد أن انصرافه عنها لم يكن برغبة منه، بل أجبرته الحوادث عليه، يقول:

" وكنت ظننت أن الأيام تسمح لي بالإقامة هناك، فإذا الضارية أحجا بعراقها، والأمة أبخل بصربتها .. ولكن علي كل خير مانع، ودون كل درة خرساء موحية أو خضراء حامية". (٥)

أجبر أبو العلاء علي العيش في الشام وسط مناخ عقلي وفكري لا يأبه له، ولا يقدره ولا يناسبه ، مبتعدا عما كان يؤثر، وفي مجتمع الشام يصف أبو العلاء ذلك المناخ الفارغ بالعماء الذي يعاني منه، وبذلك يتوحد مع المجتمع في معاناة واحدة متفقة في السطح مختلفة كل الاختلاف في العمق، إذ يعاني كلاهما من عمائه ، وتصبح البطولة للظلام ، يقول المعرى:

وبصير الأقوام مثلي أعمي فهلموا في حندس نتصادم(٦)

---

(١)السابق / ص ٨٩.
(٢)السابق /ص ٨٧ الجابرة والمجبورة من أسماء المدينة. والصيحانية التمرة نسبة إلي صيحان وهو اسم كبش كان ربط إلي نخلة بالمدينة فأثمرت تمرا فنسبت إليه
(٣) الانصاف والتحرى. من تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٤٦
(٤) إرشاد الأريب. من تعريف للقدماء ص ٨٦
(٥) السابق ص ٨٧ الضربة واحدة الضرب اللبن الحامض
(٦) ل٢ /٣٣٦

وكأنه يري التشوة هو الجامع الوحيد لهما

والمعرفة قد تجلب الألم والأذى، وهنا يرفضها أبو العلاء لأن شرط التوجه إليها النفع لعموم الإنسان:

إذا علمي بالأشياء جر مضرة إلي فإن الجهل أن أطلب العلما[1]

والمعرفة تؤلم أبا العلاء إذ تزيد من الهوة بينه وبين المجتمع، وهنا يتوجه ساخرا إلي كل إنسان يعايش مجتمعا مثل مجتمعه، يتوجه إليه مؤكدا أن للجهل طريق أوحد للذة في مثل هذا الزمن ، هكذا يجبره المجتمع على مدح الغباء :

رويدك لم تبلغ من الدهر لـــذة إذا لم تعش عيش الغبيّ المذمم

وتسمع فيه ما يصمّ ذوي النهي فلا روح إلا بالحمام المصمم[2]

الحياة الأخلاقية في مجتمع أبي العلاء من دواعي اغترابه:

أن الناتج الطبيعي الوحيد لما مر بنا من التفكك السياسي لعصر أبي العلاء، والخلل الاقتصادي، والحياة الدينية المضطربة، والمناخ العقلي غير المشبع،- أن الناتج الوحيد- هو التحلل الأخلاقي وفساد القيم في هذا المجتمع، أو في نفوس كثير من أهله، يقول المعرى:

توهمت خيراً بالزمان وأهله وكان خيالا لا يصحّ التوهم[3]

أن الواقع في عين أبي العلاء مزدحم بتكتل بشرى بشع ليس منه فرار[4] وهو تكتل ينشر الهمجية والتخريب والأمراض الأخلاقية في الكون كله[5]" أن حالة اللامنتمي هذه ضد المجتمع واضحة كل الوضوح، فالرجال والنساء جميعا يملكون هذه الدوافع الخطرة اللامسماة، إلا أنهم يخفونها عن أنفسهم وعن الآخرين، وليست أديانهم وفلسفاتهم إلا محاولات لصقل وتمدين شئ حيواني عنيف غير منظم غير متقلقل، وهو لا منتم لأنه يريد أن يعبد

---

(١) ل٢/ ٢٩١

(٢) ل٢/ ٣٠٥

(٣) ل٢/ ٢٦٦

(٤) ل٢/ ٢٧٠

(٥) ل١/ ٧٩

الحقيقة".[1] وأن الحقيقة الوحيدة التي رآها أبو العلاء وآمن بها هي أنه يعيش بين ظهراني أناس يجمعهم التحايل القذر على الحياة، واتباع الشهوات والتكالب الشره على الامتلاك:

واشرف من ترى في الأرض قدرا ... يعيش الدهر عبد فم وفرج
وحب الأنفس الدنيا غرور ... أقام الناس في هرج ومرج [2]

هذا المجتمع يطيح بالمحارم في سبيل أغراضه، ويطيح بالأعراف المقدسة.

ما حفظوا جارة، ولا فعلوا ... خيرا، ولا في مكارم ربحوا[3]

والمجتمع لا يحفظ سرا ولا يرعي حقوقا، ملغيا بذلك كل إمكانية للتواصل:

أن شئت إبليس أن تلقاه منصلتا ... بالسيف يضرب فاعمد للجماعات
تجدهم في أقاويل مخالفة ... وجه الصواب وأسرار مذاعات[4]

انه مجتمع يقدح في الأغراض[5] ويقيم بنيانه على الكذب والإعراض عن صحائح الأمور[6] بل ويسخر من الأخلاق السليمة ويتشكك فيها[7] هنا يتوجه أبو العلاء بسخريته الفاجعة ليرى أن الخداع قانون أبدى اتفق عليه الوجود كله، والكذب هو النظام الوحيد الذي وحد الانسانية المتفرقة ، يقول:

على الكذب اتفقنا فاختلفنا ... ومن أمن خلائقك الصموت[8]

أن البينة الحقيقية الصالحة للانتماء هي الثقة والأمان والقيم

---

(١) اللامنتمي /ص ١٢.
(٢) ل١/ ص ٢٠٢.
(٣) ل١/ ٢١٥ وذات المعنى في ل١/ ١٠٢.
(٤) ل١/ ص ١٧٤.
(٥) ل١/ ص ١٦٦.
(٦) ل١/ ص ٢٤٩.
(٧) ل١/ ٢٣٩، ٢٤٠
(٨) ل١/ ١٥٩.

الصحيحة[1] المقنعة، والنقيض من كل ذلك بيئة صالحة للاغتراب،... وتزداد معاناة المغترب من مجتمعه، حين لا يتركه هذا المجتمع لما ارتضاه من عزلة ووحدة، يقول أبو العلاء:

ولم تكفكم أكباد شاء وحامل ... ووحش إلي أن رمتم كبد الضب

إذا جولس الأقوام بالحق أصبحوا عداة، فكل الأصفياء علي خب[2].

مثل هذه الحياة تجعل المغترب يحذر من المسلمات ذاتها، ويتشكك في العلاقات الحميمة، فالصديق في عينه أكل لحم أخيه[3] والوفاء معدوم، بل إن وجود دليل الوفاء انتفاء البشرية عن صاحبه وبراءته من جنس الإنسان:

من ادّعى أنه وفـي ... فلينتسب في سوى الأنام[4]

أن الخوف هو الشعور الصادق الوحيد الذي يواجه به المعري مجتمعه:

مطيتي في مكان لست آمنـــه ... علي المطايا وسرحان لها راع

فأرفع بكفي فإني طائش قدمـي ... وأمدد بضبعي فإني ضيق باعي[5]

وعند عودته من العراق يرسل إلي خاله أبي سبيكة رسالة يؤكد فيها انتناسه بكل كائن غير بشري، يقول" وأنا كما علم- أدام الله تأييده - وحشي الغريزة، أنسي الولادة. وكل أزب[6] نفور.

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى ... وصوّت إنسان فكدت أطير [7]

ويقول في الفصول والغايات: " إذا خلفت، ورجع الصديق، أي صديق

---

(١) ل٢/ص ١٠٢.
(٢) ل٢/ ١٠٢.
(٣) ل١/٧٤
(٤) ل١/ ٧٩
(٥)ق٢/ ص٧٦٠، ٧٦١ الضبع العضد
(٦)الأزب. الرجل القصير والرجل الدميم والضئيل والأزب في اللغة الكثير الشعر، وفي حديث بيعة للعقبة هو شيطان اسمه أزب العقبة وهو الحية" ابن منظور. لسان العرب تحقيق الأساتذة عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي/ دار المعارف/ الجزء الثاني/ مادة أزب/ص ٦٩، ٧٠
(٧)الفصول والغايات / ص ٣٦٦.

لي، وأي نسيب، أني في الوطن لغريب، ألا ينفعني التجريب" [1]

وينفي أبو العلاء إمكانية التقائه بهذا الزخم البشرى وإمكانية التواصل معه:، فالاغتراب هو الواقع الوحيد الذي يضمهما معا" لا ينبت سرج في أعلي صرج، فإن نبت فانه غريب، وأن ثمره لا يطيب".[2]

وأبو العلاء لا ينفي نفسه من مجتمعه فقط، بل من التاريخ البشرى بأسره لأنه يرى هذا التاريخ في عمومه تاريخ شرور وذنوب، تملؤه الأحداث الرنانة والخطب الجوفاء، بينما يجمع أناسه الشر والدنس[3] الذي هو غريزة فيهم[4] وليس اكتسابا:

متي كشفت أخلاق البرايـــا	تجد ما شئت من ظلم وحرج
ضفائن لم تزل من قبل نـوح	علي ما هان من فزر وعرج
فجرّت قتل هابـــيل أخـوه	والقت بين معـــتزل وترج[5]

عزلة أبي العلاء المعري:

لم تبدأ هذه العزلة في التاريخ الذي حدده لها أبو العلاء- وهو تاريخ رجوعه من بغداد سنة أربعمائة-، بل قد بدأت هذه العزلة منذ بلغ أبو العلاء السن التي تسمح له بإدراك معني العماء، ومدى الاختلاف بينه وبين المبصرين.

والمجتمع يساهم بنصيب كبير في دفع الضرير إلي العزلة، لأنه يؤكد له وجود اختلاف بين طبيعتهما، فقد " نظر المجتمع إلي العميان، وعاملهم بثلاث طرق متباينة: كعبء ومسئولية عليه، أو كقصر تحت وصايته، أو كأعضاء به

ويرجع تاريخ ذلك إلي عصور البشرية الأولي حينما استلزم كفاح

---

(١)السابق /ص ١٩٨.
(٢) د كمال اليازجي أبو العلاء ولزوميته ص ٣٨٤
(٣) ل١/ص ٨٥
(٤) ل١/ص ١٦٤
(٥) ل١/ص ٢٠٣، الفزر من الضأن ما بين العشر إلي الأربعين، العرج من الابل نحو الخمسمائة والعرج بالضم للضياع والفزر ولد البير أى سبع الهند

الحياة تقارب الأفراد لتكوين القبيلة، واعتبر العضو الذي لم يسهم مساهمة كاملة في المجهود الحربي عبئا علي المجموعة، واستنصل، ولمدة قرون كثيرة، اعتبر العميان عبئا علي المجتمع".[1]

لذلك فأن مجموع تصرفات المجتمع مع الضرير تؤدي به إلى مزيد من الانطواء والكراهية له، بل تولد" ضغطا يعمل ضد العميان أما كأفراد، أو كمجموع أقلية".[2]

هذه العلاقة بين الضرير ومجتمعه درجة من درجات العزلة ودافع أساسي للعزلة المادية الحقيقية، التي نراه فيها يتخلص من عبء مشاعر المجتمع تجاهه، كما يتحرر من الطرق التقليدية لمعرفة العالم، تلك الطرق التي توقعه في كثير من الحرج لأنها تتطلب النظر، لذلك " يميل إلي الانطواء علي نفسه، لنقص الاستثارات التي تصله من العالم خارجي وعجزه عن الاستجابة المباشرة الصريحة المتواصلة، فنراه يعوض عن هذه الاستثارات الخارجية باستثارات ذاتية صادرة عن جسمه، أو عن تخيلاته".[3] اي يلجأ إلي طرق ذاتية للمعرفة لا يحتاج فيها إلي العالم الخارجي.

وقد كان الشعور بـ" عار العاهة" وخصوصيتها، وعبئها، أحد العوامل الرئيسية التي دفعت أبا العلاء إلي العزلة، فعند خروجه إلي صالح بن مرداس شفيعا لقومه، كان المعني الصادق الذي تبادر إلي لسانه هو اضطراره إلى هتك ستره ، لذا يقول:

تغيبت في منزلي برهة ... ستير العيوب فقيد الجسد
فأما مضي العمر إلا الأقل ... وحتم لروحي فراق الجسد
بعثت شفيعا إلي صالح ... وذاك من القوم رأي فسد[4]

فستر العيوب هو اول ما ذكر أبو العلاء دافعا إلي الاغتراب.

وفي اعتذاره إلي عزيز الدولة- وإلي حلب- بأنه سيتخلف عن قبول دعوته بالمثول بين يديه، يلح علي أبي العلاء احساسه بفقد البصر وما تراكم

---

(١)سيكولوجية المرضي وذوي العاهات / ص ١١٧
(٢)السابق / ص ١١٨
(٣) السابق / ص ١٦، ١٧.
(٤)ابن العديم الأنصاف والتحري من تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٧٤

عليه من وهن الشيخوخة وأمراضها، ويجعل آفة الجسم- أيا كانت، داعيا قويا لامتناعه عن زيارة أي إنسان، يقول. " وعزير الدولة يعين الكسير بالجبر، فكيف يأمر بإخراج ميت من قبر، لو كنت بارئا من هذه العلة، لشرفت نفسي بزيارة تلك الحضرة، غير أني عنها راض، وما أقربنى إلي انقراض، وأنا حليف التمراض".[1] ويؤكد أبو العلاء أن العمي عامل أساسي لعزلته في قوله " والأعمى عورة، والواجب استتارة في كل أحواله".[2]

وحين يوجه أبو العلاء حديثه إلي الإنسان حاثا له علي الانفصال عن مجتمعه يدعوه إلي التشبه بالأعمى، فالأعمى في مفهومه كامل الانفصال دائما بما ، يصلح مثلا للمعزولين عن الحياة، المطرودين منها:

أطرق كأنك في الدنيا بلا نظر وأصمت كأنك مخلوق بغير فم[3]

وإذا كان العماء أول العوامل التي دفعت أبا العلاء إلي العزلة فإن علاقته بأمه وفقده لها ثاني هذه العوامل- في اعتقادنا -: فأبو العلاء اندفع إلي أمه بشعور الكفيف، واندفعت هي إليه محملة بمشاعر الأم التي ترى وليدها يعاني نقصانا جسديا ليس بالهين،... وقد أدركت مدى شقائه وأشفقت عليه، فضاعفت من رعايتها له، لأن أمومتها ذاتها تضاعفت، فاندفعت تقرأ له وتتعهده بالنظافة والمطعم والتسلية، لتنأى به عن الشعور بالوحدة أو بالنقص الجسدي، أو بالاختلاف عن الآخرين، ولتدفع به إلي مكانة علمية تعوضه فقد البصر:" وإزاء هذه الداله يتعود الأعمي علي درجة من الحماية تعود به القهقرى إلي عهد الطفولة".[4] وبالفعل التصق أبو العلاء بأمه، التصاق الطفل وكانت هي مجتمعه الوحيد، فكانت مجتمعا جميلا مثاليا، وكان شعوره بالعماء أقل حدة من شعوره به بعد فقدها، فقد كانت تكفل له الاصطدام بالعماء ، وكانت تكفل له الاصطدام المباشر بعاهته، أو بالمجتمع من خلال عاهته،... ولما فقدها فقد كل هذا، فوصف نفسه في رثائه لها بأنه كهل ما تعدى مدى الفطام.

وقد تزامن فقد أبي العلاء لأمه مع عودته من رحلة بغداد- التي نزعم أنها لم تكن موفقة، وإلا لكان أبو العلاء قد أعادها علي الأقل هربا من مشاعر

---

(١) ابن القديم – الانصاف والتحري / ص ٥٧٤.
(٢)القفطي انباه الرواة. من تعريف القدماء/ص ٣٦
(٣) ل٢/ ٣١٤..
(٤) سيكولوجية المرضي وذوي العاهات ص ١٢٣

يأسه ووحدته التي تكابت عليه بفقد أمه،- وأن لم تكن رحلة بغداد فاشلة، فهي علي الأقل قد صدمت أبا العلاء بالمجتمع، أو أوقعته في فخ التجريب و" الانتقال من بيئة لأخرى تتحدى قدرته علي الحركة، ربما يولد لديه شعورا بضايقه، فربما يرفض ويثور، ضد أي مساعدة تقدم له في نواح كثيرة يعلم أن المبصرين يؤدونها بأنفسهم دون الاعتماد علي غيرهم، وربما تطور ذلك إلي كراهية عامة لمجتمع المبصرين". وأي هذين الشعورين: " التراجع إلي الطفولة، أو التمرد والعداء لمجتمع المبصرين" إذا ما استمر يعني الشعور بعدم الأمان".[1]

عامل آخر رئيسي دفع أبا العلاء إلي عزلته المادية هو:

" خلل بنية المجتمع" وقد رأينا في الصفحات السابقة أن هذا الخلل قد استشرى في الحياة السياسية والاقتصادية والدينية والأخلاقية والعقلية، هذا الخلل الذي أطلع أبو العلاء عليه وأمعن في وصفه في قصائده يخلق نوعا آخر من التهديد والشعور بعدم الأمان، إذ يزداد يقين الفرد بأنه محاط بالفوضي والخسر، معرض للاتهام والأدانة- وأن لم يخطئ-، معرض للنفي من ذاته وخصوصيتها لأنه مشاع للجميع، ولأن هذا الجميع يستطيع غزوه واقناعه بما لا يرضي وبما لا يتفق مع جوهره، فإذا كانت " الشخصية تطلق علي عدة معان، فقد تطلق علي الشعور بوحدة الحياة الروحية للفرد بازاء المجموع".[2]

العزلة هنا مقاومة وانقاذ للجوهر، يقول أبو العلاء:

بعدى من الناس برء من سقامهم ... وقربهم للحجى والدين أدواء
كالبيت أفرد لا ليطاء يدركه ... ولا سناد ولا للفظ إقواء

نوديت للويت فانزل، لا يراد أتي سيرى لوى الرمل، بل للنبت للواء[3]

يصف أبو العلاء عزلته بأنها جهاد من أجل الأنا، وناي بها عن كل ما تنكر[4] خاصة عن للمجتمع للذي لا يعتقد المعرى أن هناك إنسان لم يشق به

---

(١) السابق . ص ١٢٣
(٢) د. عبد الرحمن بدوي . للعبقرية وللموت. ص ٥٠
(٣) ل١/ص ٧٥.
(٤) ل١/ص ٢١٤.

ولم يعان من وجوده في مثله [1]

وسقط الزند يحمل البدايات الشجيه لعزلة أبي العلاء، حيث يتكي أبو العلاء علي قيمة راحلته، ويصف وجودها المرتبط بوجوده، والمنصهر معه في بوتقة واحدة: هي الرغبة الدائمة في الرحيل والانفصال عن العالم بأسره، يقول:

مواصلة بها رحلي كأنـي من الدنيا أريد بها انفصالا

فالرحلة إذن لم تكن إلي بلاد أخرى، بل كانت تشوقا إلي عالم آخر وحياة أخرى، وقد حقق أبو العلاء رغبته هذه- أو كاد- في إصراره علي عزلته المادية التي أضاف إليها عزلة أخرى من خلال الشعر- كما سنرى في الفصل الأخير من هذه الدراسة- وكأن مناجاته لراحلته في شعر السقط وإلحاحه علي السفر ، إنما كان إلي هذين العالمين.

وفي سقط الزند نري لهاث أبي العلاء وراء " اليوتوبيا" نرى علاقة مضطربة بالأخر، وترددا بين الانتماء والرفض، يقول المعرى:

تجنبـت الأنـام فمـا أواخـي وزدت علـي العـدو فمـا أعـادي
ولـو أنـي حبيـت الخلـد فـردا لمـا إحببـت بالخلـد انفـرادا
فـلا هطلـت علـيّ ولا بأرضـي سـحائب لـيس تنـتظم الـبلادا [2]

وقد رأي د. غنيمي هلال في هذه الأبيات تناقضا بين الصور والفكرة، وأن أبا العلاء يغالط معانيه من أن لأخر في هذه القصيدة، حيث يدعي الرغبة في خير الإنسانية ثم يعلن ضيقه بالناس وعدم مبالاته بما يحدث لهم إذا ما نال ماربه الشخصي. [3]

والواقع أن أبا العلاء لا يتناقض مع نفسه، فهو حين يعلن رغبته في تجنب الناس- في البيت الأول من هذه الأبيات- إنما يعلن رفضه للواقع وعدم رضائه عنه لكنه لا يعلن رغبته في تدميره أو سحقه، أو الانتقام منه، هو يعلن انفصاله لكنه في ذات الوقت لن يتوانى عن بث خير ما – كما في البيت الثاني والثالث- إذا ما تيسر له ولن يحصره في ذاته، أنه في هذه الأبيات يبسط مفارقة

---

(١) ق١/ص ٤١..
(٢) ق٢/ص ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦٤.
(٣) د. محمد غنيمي هلال. النقد الأدبي الحديث. دار نهضة مصر للطباعة والنشر ١٩٧٩م. ص ٤٢٣.

مؤلمة، هي أن الواقع بهذا الشكل الذي لا يرضاه واقع ينبذ ذاته، ويطردها، واقع يرفضه، وربما يرفض أن يمد إليه يد الخير، أما هو فأنه أن رفض تشوه هذا الواقع، لن يرفض إصلاحه وإنماءه وخيره ، كما يعلن انه يرفض واقعا مشوها ويرجو واقعا انسانيا مثاليا .

العزلة إذن دفاع عن الوجود الشخصي، دفاع عن الماهية وليست ترفا وقد أيقن أبو العلاء من أن وجوده الأصيل،- وجوده الحقيقي- لن يتحقق إذا ما انسحق تحت إقدام المجموع، فوصف امتزاجه بهذا المجموع تارة بأنه امتزاج بين الروح والجسد[1] بما يعني ذلك من الاختلاف والتنازع، كما وصف هذا الامتزاج بقوله:

وأفسد جوهر الأشياء أشب كما فسدت من الخيل العراب [2]

ويعلن رفضه للمنطمسين في الزحام[3] يعلن رفضه أن يكون قطيعا مسوقا، فأمامه داخل نفسه[4] لا خارجها، لأن هذه البلاد التي تضمه لا تصلح للأمامة، بل أن النجم الهادى يظل طريقة فيها:

بلاد يضل النجم فيها طريقه ويثني دجاها طيفها عن لُمامه[5]

أنها صحراء تنبذ الدليل، وغواية ترفض الهدى.

وحين يصف غربته يراها مزيجا من شيئين، أو وسطا بين غربتين:

هي غربتان، ففربة من عاقل ثم اغتراب من محكم عقلـه[6]

وتلح علي أبي العلاء أمنية للعزلة في كل سياق، فيتمني أن يعيش علي هامش الحياة، بلا لون أو خصوصية، إذا كان هذا القربان كفيلا بأن يقيه شر ما يخشي:" ومن لي بالمنزلة بين المنزلتين: لا أكرم ولا أهان"[7] وهذه الرغبة تؤكد أن عزلته المادية. كانت خشية من الاحتكاك بالحياة وأن هذه الخشية

---

(١) ل٢/ص ٢٩٧.
(٢) ل١/ص ٨١.
(٣) ل١/ص ٩١، ٩٢.
(٤) مع أبي العلاء في سجنه . ص ١٨٧، ١٨٨.
(٥) ل١/ص ٨٦.
(٦) ل٢/ص ١٠٢.
(٧) أبو العلاء المعرى. الفصول والغايات/ص ٧٢.

منبعثة من يقين كامل بفساد الحياة، وشرورها، وانعدام جدوي" الفعل" فيها.

ولعل ذات الأمنية نراها في موضع آخر حين يعمد أبو العلاء إلي جمع الحروف الزائدة في اللغة العربية في قول موجز أو جملة واحدة، فنراه يستخرج منها جملتين أو معنيين" أحدهما": التناهي سمو" والأخر: تهاوني أسلم وربنا مزيل الشبهات".[1]

فقوله: التناهي سمو سعي دائب إلي عزلة الشخصية، وكفاحها ضد الابتذال[2] أما قوله" تهاوني أسلم" فهو ذات المعني الذي عمد إليه حين أراد المنزلة بين المنزلتين.

"والصمت" أحد صور العزلة التي يلجأ إليها أبو العلاء المعرى ويحتمي بها، يقول:

ألم ترني حميت بنات صدرى ... فما زوجتهنّ وقد عنسنه

ولا أبرزهن إلي أنيس ... إذا نور الوحوش به أنسنه[3]

الصمت نوع من الأقنعة، فهو يحجب داخل الإنسان بما يقيه شرور خارجه[4] وهو أيضا تحفظ وثقة في الذات تقابلها عدم ثقة في غيرها[5] وإذا كان دافع الصمت الخوف، فأن الصمت منجاة في عين المعرى:

قد نال خيرا في المعاشر ظاهرا ... من كان تحت لسانه مخبوءا[6]

الصمت في شعر أبي العلاء إغلاق علي سر القلب وهمومه[7] احتجاب حتى عن أقرب الأصدقاء[8] اختباء عن مجتمع غبي[9]... أن الصمت وليد عوامل قوية في حياة المعرى، لذلك التزم به صادقا ولم يتخل عنه، بما انعكس في خصائص شعره في صورة تعبيرية خاطئة ، فالمعري احاط شعره بالصمت

---

(١) السابق . ص ١٤٦. ومثل هذا المعني يتردد ص ١٢٢، ٩٠، ١٢٣ أيضا

(٢) فؤاد كامل. الشخصية بين الحرية والعبودية. ص ٥٤، ٥٥.

(٣) ل٢/ص ٣٦٢.

(٤) الشخصية بين الحرية والعبودية / ص ١٤.

(٥) سيكولوجية المرضي ونوي العاهات/ص ٣١، ٣٢.

(٦) ل١/ص ١٢٠.

(٧) ل١/ص ١٩٢.

(٨) ل١/ص ٢٨٢.

(٩) ل١/ص ١٢٠

، وغلفه بكثير من التحفظ والإغلاق، وحاول أن يجعله عالما يفهمه هو فقط ويدرك أسراره وحده، نلمس هذا من خلال اللغة والصورة الشعرية والأساليب شعرية وموسيقي الشعر أيضا.

وفي شعر أبي العلاء الحاج علي عوالم موحشة تؤكد اطمئنانه إلي العزلة واختياره الحقيقي لها، ففي هذا الشعر يكثر ذكر الصحراء بكل كائناتها، فتشكل في شعر المعرى مجتمعا دافئا آمنا مناسبا للمعري، يقول:

والمصر آنس منه خرق مفازة آنس الدليل بقائها مع طائها[1]

الفقر في شعره أمنية عزيزة[2] والعزلة أعز الخطوط[3] ومعاشرة مفردات الصحراء خير من معاشرة المجتمع[4] لذلك نرى معرى يكثر من وصف الحرباء المتيمة بشمس الصحراء[5] ويكثر من وصف الناقة وغيرها مما سنطالعه في الدراسة الفنية لشعره.

وإذا كان عالم الصحراء أحد العوالم التي يحتزل فيها أبو العلاء، فأن عالم العمياء ومفرداته يشكل له بديلا عن المجتمع، فهو يأنس بالعصا، عصا الضرير ويراها خيرا من مصاحبة الإنسان وأكثر أمنا.[6]

وعالم الحيوان بديل للمجتمع عند أبي العلاء أيضا، فهو سريع الائتلاف مع كل كائن ضعيف عاجز يؤنسه[7] وأن إحساس أبي العلاء بفقد البصر كان ترقيقا مفرطا لمشاعره، جعله يستشعر ضعف أي كائن ويضخم من نتب المساس به، فهو يتخيله إنسانا، ويسقط عليه إحساسه بفقد البصر فيتراءى له أنه يعاني مثل ما يعاني إذا ما تعرض للذبح أو السجن أو تعرض صغاره لخطر ما، من هنا امتنع أبو العلاء عن أكل الطير والحيوان رحمة بعجزها، مدفوعا بمحنة بصره- فلم يكن موقفه تحريما دينيا إذ لا يليق به هذا وهو مؤلف التصانيف الدينية التي تؤكد قراءته ووعيه الديني- وإذا كان هذا الموقف من

---

(١) ل١/ص ٥٨.
(٢) ل١/ص ١١٤ ويتردد ذات المعني في ل٢/ ٣٧٩.
(٣) ل١/ص ١٢٣.
(٤) ق٤/ص ١٧٧٠، ١٧٧١.
(٥) ل١/ص ٢٠٩.
(٦) ل١/ص ١١٣ وذات المعني في ل٢/ ٣٤٩
(٧)خليل شرف الدين. أبو العلاء المعرى. ص ٩٢، ٩٣.

أكل الطير والحيوان مدفوعا بمحنة فقد البصر، فأن لجوء أبي العلاء إلي عالمهما وتوطيد صداقته بهما في شعره كان دافعه فقد البصر أيضا، لأنه بحث عن الانتماس والألفة التي تفرضها الحاجة الإنسانية التي منعته هذه العاهة عن إشباعها.

كذلك كان المجتمع محرضا لأبي العلاء دافعه إلى استبداله ، بعدما رأي خلله، وافتقد الصدق والثقة فيه، وسنري في شعر المعري مملكة كاملة للحيوان واعتمادا كبيرا عليه في تصوير اغترابه.

عالم الليل أحد العوالم الأخرى المتكررة في شعر أبي العلاء التي يري فيها عزلته خاصة،... وعالم الليل عالم علائي خاص، لأنه عالم عاهته فمنه تنطلق معاناته، وهو الوحيد بظلامه وسكونه الذي يشعر أبا العلاء بتوحد الكون معه في عزلة واحدة ومحنة واحدة أو عماء واحد[1] لذلك فإن ثنائية الليل والنهار تتكرر في شعره – وتعد أحد محاور الطباق والمقابلة في هذا الشعر، لأنها ثنائية تصور صراعه بين الحلم والواقع.

وعالم المجردات عالم آخر للعزلة في شعره، فأبو العلاء في سقط الزند يتوحد مع السيف ويعهد إليه بتحقيق حلمه في الحركة والفعل، أما بعد المرحلة الأولي من السقط فقد توجه أبو العلاء إلي الدرعيات، توجه إلي مرحلة جديدة من الرؤية والاستكشاف والوعي، مرحلة واعية ناضجة للقضايا، واحتواء للذات، واحتواء للمجموع.

والدرعيات أرهاص طبيعي وتوطئه حقيقية للزوم ما لا يلزم، لأن الدرع مقاومة ودفاع لا هجوم، لذلك دعا مفهومها أبا العلاء إلي المزيد من جهاد النفس وحملها علي المشقة.

ولجوء أبي العلاء إلي الدرع ، للتحام أيضا بعوالم ليست إنسانية، وتوحد بأشياء ملعونة، وبوح بالوحدة والوحشة التي لم تشبع عبر مساربها الشرعية، فلجأت إلي منافذ أخرى جانبية غير مطروقة.

وهنا يجدر بنا تحليل علاقة أبي العلاء بالمرأة الذي أجلناه ليأتي منسجما مع منطق الموضوعات وتدرجها الطبيعي:

---

(١) ق٢/ ٥٤٥.

عزف أبو العلاء عن المرأة- أو هكذا بدا لنا في الظاهر- حيث لم يشتهر عن أبي العلاء علاقة بامرأة غير أمه، ولم يتقدم للزواج من إحدى النساء فاشتهر بكراهة المرأة، واحتقارها خاصة أن كثيرا من شعره يغري بهذا القول، فهو يحث علي هجر النساء ويراه هجرا يجلب الايناس والراحة إلي النفس، يقول:

أن صحّ عقلك فالتفرّد نعمة ونوى الأوانس غاية الإيناس[1]

وهو لا يهجر المرأة فقط، بل يعاملها معاملته للشيطان الرجيم، فيستعيذ من طقوسها ومقدمات مجيئها: الحلي والعطر، ويصور في إحدى درعياته صراع درعه مع مفردات عالم المرأة هذه، يقول أبو العلاء:

وليست وأن جاءت بحلي وزينة علّي كدرعي عزة وصيانة
وليس أبوها بالذي أنا بائع ولو ساق فيها أبله وحصانه
وما سامحت نفسي بها عند حادث فلانا فما بالي وبال فلانة[2]

وأخلاق المرأة في نظر أبي العلاء ليست غير الخيانة والتسلط والاندفاع، ويكفي الرجل من خطرها تعرضها له بالتبرج والغواية وأضعاف العقيدة، يقول:

أقلّ الذي تجني الغواني تبرج يري العين منها حليها وخضابها
فأن أنت عاشرت الكعاب فصادها وحاول رضاها وأحذرن غضابها
فكم بكرت تسقي الأمر حليلها م الغار، إذ تسقي الخليل رضابها[3]

ولأنه يري جوانح المرأة ملأي بالسم والخديعة[4] يكثر من تشبيهها بالحية، مما سنعرض له في الدراسة الفنية لشعر أبي العلاء- مما يحمل إلينا روح المتنبي حين يصف المرأة، يقول المعري:

وفي الحيّ أعرابية الأصل محضة من القوم أعرابية القول والطبع

---

(١) ل٢/ ص ٤٩.
(٢) ديوان سقط الزند. طبعة بيروت. ص ٢٩٧.
(٣) ل١/ ص ٩٤.
(٤) ل١/ ٣٤٧.
(٥) ق٣/ ١٣٤٤، ١٣٤٥، ١٣٤٦ لبة: لبيبة الوكع: اللدغ الطلا. ولد الظبية

وقد درست نحو السرى ، فهولبة ... بما كان من جر البصر أو الرفع
ألفت الملا، حتى تعلمت بالفلا ... رنوّ الطلا أو صبغة الآل في الجذع
ومن يترقب صولة الدهر يلقها ... وشيكا وهل ترضي الأساود بالوكع[٥]

ويصبح من العسير علي الأسد- الذي يرمز به أبو العلاء إلي نفسه كثيرا خاصة في هذا السياق- يصبح من العسير عليه في غالب الأحيان أن يضعف أمام امرأة – حية- عالمها الظلام والغدر، بينما عالمه أنفة ونعمة ووضوح واقتدار، لكن هذه المرأة أحيانا تتشبه بهذا الأسد حين يريد أبو العلاء وصفها بالافتراس والوحشية والنهم:

وأري العروس تحجبت في خدرها ... كمعرّس الأساد في الأخدار[١]

نظر المعرى إلي المرأة نظرة خوف وتحقير في ذات الوقت، وآمن أنها مخلوق غادر ناقص شره، لذلك فهي تنفر من الرجل الضعيف، الذي أوهنه الزمن، ولا تفي بعهده[٢] وتتكل بمن لحقه الشيب، فيحذر في شعره كل من أبيض شعره من أن يدنو منها[٣] لأنها في وقت لاحق ستتنكر له باحثة عن الأقوى والأكمل[٤] والأجمل.

وحصانة المرأة أو عفتها في رأي المعرى خرافة أو محال، لذلك يعتقد أن السر الحقيقي وراء تحريم الإسلام دخول الطفل مخدع المحارم إنما هو الشك في عفة المرأة ذاتها، وليس أي سبب آخر[٥].

مثل هذه الصفات التي يلحقها أبو العلاء بالمرأة تلحق بكل أنثي في الأرض: أنثي الحيوان، وأنثي الطير، وفي قصته الرمزية: " مصرع الفنان" أو (قصة الوحش) يصور المعرى أناث الحمار الوحشي غير عابئات بموته أو مباليات بحادثة الأليم[٦] في الغابة.

أن صورة المرأة في شعر أبي العلاء صورة تؤكد أن لأبي العلاء موقفا

---

(١)ل١/ ٤٢٣.
(٢)ل٢/٢٦٢.
(٣)ل٢/ ٣٥٧، ٣٥٨.
(٤)ق١/ص ٧٢، ٧٣.
(٥)ل١/٢٤٧.
(٦)كامل الكيلاني . حديثة أبي العلاء . ص ٧٢.

منها، ولا نستسيغ الرأي القائل بأن هذا الموقف إنما هو مجاراة للمجتمع[1] الذي اعتاد وصفها بما يشين بعد أن شاع عنصر الأجنبيات من النساء وأشاع معه كثيرا من الفجور والتحلل، لأن المجتمع في عهد أبي العلاء لم يتخذ موقفا عدائيا جمعيا من الزواج، ولم ينادِ بالعقم والثورة علي النسل، بل أن شهرة موقف أبي العلاء منها دليل تفرده به، أو تميزه وحده بالإفراط والتطرف والحدة علي الأقل.

كذلك لا نستسيغ تبرير عزوف أبي العلاء عن الزواج برقة حاله المادية إذ كان يستطيع أن يتزوج من رقيقة الحال التي تقنع بدخله المتواضع الذي كان يقتسمه مع خادمه.

كذلك فأن التاريخ لم يحتفظ لنا بما يؤيد معاناة أبي العلاء من ظرف جنسي خاص دعاه إلي ذم الزواج والقول بتعطيل النسل كما ذهبت إلي ذلك بعض الآراء[2] بل أن شعر أبي العلاء يؤكد النقيض من ذلك، حيث يصف المرأة وصفا يتجلي فيه افتتانه بها وتعطشه إلي وجودها، حتى في حال تحذيره منها، ووصفها بالغواية وبما لا يليق، كذلك تبدو هذه المشاعر في غزله الذي قد يبدو تقليديا للوهلة الأولي، يقول:

لم يكفها نور خديها، ونور نقا ... في ثغرها، فأصارت عشرها عنما

كانت أضرّ لأهل النسك من صنم ... فليبعد الله تلك الخود والصنما[3]

والواقع أن وصف أبي العلاء للمرأة يلفت أنظارنا، حيث يؤكد حنينه إليها، واستشعاره حاجة طبيعة للارتباط بها، ويبدو ذلك يصدق في غزله- الذي لم يكن فقط استهلالا لقصائده، بل كانت له قصائد كاملة[4] ومقطوعات قصيرة وأبيات متفرقة فيه-، وتستوقف الدراسين لهذه الناحية من حياة أبي العلاء غزليته التي أجاز بها بيتا لأحد الشعراء[5] حيث يبدو إحساسه وانفعاله بتكوين

---

(١) أنيس المقدس. امرأة الشعر في العصر العباسي. دار العلم للملايين . بيروت . ط٥/ سنة ١٩٦١م/ ص ٤١٥.

(٢) د. مصطفي صادق الجويني. آفاق من الإبداع والتلقي في الأدب والفن . دار المعارف. سنة ١٩٨٣م. ص ٢٤.

(٣) ل٢/ ٢٩٧.

(٤) ق١/ ٧٢٩، ٧٣٨، ق ٣ من ١١٣٧ إلي ص ١١٤٠

(٥) ق ٢/ص ٨٨٤ إلي ص ٨٨٨.

المرأة المتناسق ومفردات جمالها انفعالا طبيعيا.

بل أننا نستشف شوق أبي العلاء للمرأة من حديث عابر يصف فيه برغوثا قد حط علي جسد غادة، فيبدو أبو العلاء مسقطا أمانيه ومشاعره علي كاهل هذا البرغوث، فيصفه حين " يمر بمواقع التقبيل من الفتاة، وأميرها الفيور شاهد فلا يغار" ويتتبع البرغوث الذي " كم بات بين الكاعب وبين الشغار(الثور الملاصق للجسد) يرتع من جسدها حيث شاء، لا تظن الفاحشة، ولا يستراب".[1] ... أننا لا نستطيع أن نتغاضى عن مثل هذه المواضع التي يبدو فيها انفعاله الجنسي بالمرأة عاليا.

وفضلا عن هذه المواضع من شعر أبي العلاء- ولدبه عامة- التي تؤكد لهفته إلي المرأة، فأن هناك مواضعا أخرى من شعره تكاد تشير إلي علاقة حب خاصة بين أبي العلاء واحدى النساء حيث نسمع في هذه المواضع موقفا مختلفا من المرأة[2] به شجن التجربة الحقيقية وأحزان المعاناة الخاصة، به صدق المعرفة والتجريب ، به خلال الذكرى واحزان اليأس.

وتكثر هذه المواضع في سياق الحديث عن العراق[3] فنرى غزل أبي العلاء في المرأة من خلال ذكره للعراق يحمل روحا خاصة وتأملا واسعا، كتلك القصيدة التي طالع بها المعرى أمامة، ومزج بينها وبين رمزية الأرض وطقوس الخصب ومفردات الكون المختلفة:

سنح الغراب لنا، فبتّ أعيفه ... خبرا أمضّ من الحمام لطيفه
زعمت غوادي الطير أن لقاءها ... بسل تنكر بعدنا معروفه
ولقد ذكرتك يا أمامة بعدما ... نزل الدليل إلي التراب يسوفه
والعيس تعلن بالحنين إليكم ... ورغامها كالبرس طار نديفه
فنسيت ما كلفتنيه وطالما ... كلفتني ما ضرني تكليفه
وهواك عندي كالغناء لأنه ... حسن لدىّ ثقيلة وخفيفه[4]

كما نطالع صدق التجربة وواقعيتها في تلك المواضع من شعر المعري

---

(١)حديقة أبي العلاء . ص ٨٢ ، ٨٣ والقصة أيضا في الفصول والغايات ص ٧٩، ٨٠
(٢) ل٢/ص ٣٤.
(٣) ق٣/ ١٠٤١
(٤)ديوان سقط الزند بيروت ص ٢٢٣ رغامها زبد يخرج من فمها سنح ، عرض ، بسل حرام يسوفه يشمه البرس القطن

التي يصف فيها يأسه المطلق وحزنه النبيل حين يتلبسه يقين بأن المرأة تدنو من عالمه إلا في الخيال والخيال فقط.[1]

أن واقع حياتنا البشرية يقتضي القول بأنه " ليس بين البشر مخلوق لم يلتق في حياته بذلك(الأخر) الذي أثار اهتمامه، وأخرجه من وحدته، وعمل علي تحويل كل انتباهه من (الأنا) إلي (الأنت)".[2]

لذلك لا نستبعد وجود علاقة بين أبي العلاء وإحدى النساء، نستبعد العكس من ذلك، ولكن سواء صح هذا أم لم يصح.[3] نتساءل لماذا كانت النتيجة عزوف أبي العلاء عن المرأة بعد أن استبعدنا عامل الفقر، وعامل مجاراة المجتمع في ذمة للمرأة، وكذلك عامل معاناة أبي العلاء من ظرف جنسي خاص؟... الواقع اننا نظن أن هناك أكثر من عامل وراء هذا العزوف ولعل أولها وأقربها إلي الواقع والعقل: كف بصر أبي العلاء مضافا إليه تشوه وجهه من آثار الجدري، وقد كان كف البصر كفيلا وحده بمنع أبي العلاء عن المرأة،... يقول أبو محمد عبد الله بن الوليد بن غريب الأيادي المولود بالمعرة حين زار أبا العلاء مع عمه أبي طاهر لحمد بن محمد الأصبهاني- يقول واصفا هيئة أبي العلاء ووجهه:

" دخلت علي أبي العلاء، وأنا صبي مع عمي أبي طاهر، نزوره، فرأيته قاعدا علي سجادة لبد، وهو شيخ، فدعا لي ومسح علي رأسي، وكأني أنظر إليه الساعة، وإلي عينيه، أحداهما نادرة، والأخرى غائرة جدا، وهو مجدر الوجه، نحيف الجسم".[4]

كيف يستطيع أبو العلاء أن يظن بالمرأة ظنا حسنا، وأن يعهد إليها بالوفاء والأمانة والعفة، وهو يعلم ميلها إلى الاتساق والجمال،- أو علي الأقل،

---

(١)ق٣/ ص١٣٣٠، ١٣٣٥، كذلك ق٤، ص ١٤٩٥، ١٤٩٦.

(٢) د زكريا ابراهيم. المشكلة الخلقية. مكتبة مصر ط١/ ١٩٦٩م/ ص ٢٨١.

(٣) نفت د. بنت الشاطئ احتمال وجود تجربة واقعية لأبي العلاء مع المرأة، ووصفت غزله فيها بأنه لا يتعدي أن يكون " مولجد محروم من الحب" أو أن يكون " من الشعر الرمزي" مع أبي العلاء في رحلة حياته. دار الكتاب العربي لبنان بيروت ط١/ ١٩٧٢م/ ص ٦٧، ٦٨، ٧٠، ٧١. أما عميد الأدب العربي فقد نفي إحساس أبي العلاء بالحب والغزل لأنه " رجل ضرير مفجع قد ملكه الزهد وحالت فلسفته بينه وبين لذات الحياة، إنما هي مقطوعات نظمها لظما فنيا".

(٤) القفطي . انباه الرواة علي انباه النحاة. من تعريف القدماء ص ٣٣

إلي مالا يبصر ويرعوي.. كيف يصف المرأة، كما سر سر صفحة، وأنه لا تخلص لضعيف أو عاجز أو عجوز، وأنه سرعان ما تشكل بمن يهاوى للحق بالأكمل، كيف يوقن بهذا، ويأمن إلي امرأة بهذه الصفات وهو على هذه الحال التي لا يأمن فيها إلى امرأة

أن أبا العلاء شديد الفزع من فقد بصره، شديد الخجل منه، وقد مر بنا وصفه له بانه عورة يجب ستر ها، كذلك يتردد في كتب الأدب حادثة بعينها لها دلالة كبيرة فيما نحن بصدده

"ذكر أنه نزل إلي السرداب، وأكل شيئا من رب أو دبس، ونقط علي صدره منه يسير وهو لا يشعر به، فلما جلس للأقراء لمحه بعض الطلبة، فقال. لعن الله النهم، فاستحسن منه سرعة فهمه بما علي صدره، وأنه الذي أشعر به" [1]

أن حياء أبي العلاء من إظهار نهمه وبيان أمره لتلاميذه، حياء ولدته حساسية فائقة من العاهة، بما انقلب بعد ذلك إلي إحساس حاد بوجوب الامتناع عن كل ما يبدي آثار هذه العاهة، ويبدى اختلافه في السلوك عن غيره من الناس، ولا نعتقد أن مثل هذا التعقيد النفسي ومثل هذه الأنفة تسمح لصاحبها بأن يتزوج وأن يبدو أمام أنثاه غير مكتمل السلوك، والهيئة أو البنية ، كيف يستطيع أن يبدو ذكرا مثيرا للاشفاق

أنا أبا العلاء قد استتر من أجل أكل العسل، لكنه لا يستطيع أن يستتر وهو يحب امرأة ويبني بها، لذلك غبط البرغوث- وقد مرت بنا قصته- لارتياده جسد غادة وكان محك غبطته له أنه لن يستر اب، ولن تظن به الفاحشة، والجامع بين الوصفين أنه لن يراقب، وأنه - أي البرغوث حر طليق وأن ما يفعله مألوف ليس شاذا. ويشير أبو العلاء إلي علاقة كف بصره بامتناعه عن المرأة كثيرا في شعره، فمن ذلك قوله:

ما سرت إلا وطيف منك يصحبني	سريّ إمامي وتاويبا علي اثري
لو حط رحلي فوق النجم رافعه	الغيت ثم خيالا منك منتظري
يود أن ظلام الليل دام له	وزيد فيه سواد القلب والنظر [2]

وكان أبا العلاء حين أدرك أن عماءه يحول بينه وبين انثاه، أبي

---

(١) أنباه الرواة تعريف القدماء ص ٣٧ الدبس العدل

(٢) ق ١/ ص ١١٨، ١١٩

الاملاقاتها في الظلام، الذي ود تطويله حيث يتيح له استقبال الخيالات والأفضاء إليها بما لا يطيق البوح به في عالم النهار ، أن الظلام الذي يحول بينه وبين المرأة هو ذاته الذي يحتوى أبا العلاء في لقائه بالمرأة.

وكثيرا ما يبكي أبو العلاء حرمانه من ري الحسان[1] وكثيرا ما ينقلب علي نفسه معيرا أياها بالعجز والنقص حين تتشوف إلي النساء[2] وهو يصف أمامنا بوضوح تلك العلاقة بين عجزه وعزوفه عن المرأة في قوله:

والمرء ليس بزاهد في غادة لكنه يترقب الإمكانا[3]

أن معاناة أبي العلاء بفقد بصره مانع أساسي من ارتباطه بالمراة، وهو عامل أرضي- يتصل بالواقع- ولا يعقل أن تكون معرفته بآلام البشر مانعا دونها، لأن المعرفة بآلام البشر ليست كافية لمنع الفعل والإرادة، خاصة الفعل الجنسي[4] الذي هو وسيلة لتعمير الحياة وازدهار الكون بالنسل والأجيال المتتالية. وسيلة لغاية سامية لذلك كان هذا الفعل- الجنسي- من أقوي غرائز الإنسان وأشدها ألحاحا عليه.

أن فقد البصر قد حال بين أبي العلاء والحياة الطبيعية، بوجه عام، أورثه الحرمان من تلك الحياة، وأن فقد البصر أيضا هو الحائل الأساسي بينه وبين المرأة، لذلك فكثيرا ما يبدل أبو العلاء بين موقع المرأة وموقع الحياة في شعره مازجا بينهما معتبرا أن أحداهما تعني الأخرى وكثيرا ما يخاطب الحياة بأنها العروس التي أوقع الطلاق بها[5] لكنه حين يتخيل الحياة أما، يأسف- إذ لا منجي له منها- وقد لمسنا مدي ارتباطه بأمه- يقول مخاطبا الحياة:

لو أنك العرس أوقعت الطلاق بها ولكنك الأم مالي عنك منصرف[6]

وكما أنكر زهده في المرأة وأعلن لنتظاره للأمكان، يصرح أبو العلاء

---

(١) ل٢/ص ٣٧٢..
(٢) ل٢/ص ٣٦٠
(٣) ل٢/ص ٣٦٠.
(٤) د. فؤاد كامل. الفرد في فلسفة شوبنهور. مكتبة الدراسات الفلسفية دار المعارف ١٩٦٣م. ص ١٠٥، ١٠٦.
(٥) ل٢/ص ٥١.
(٦) ل٢/ص ١٠٠.

بأن زهده الظاهري في الحياة إنما هو عجز عن نيلها

من لم ينلها أراك زهدا ومن لعير بصليانة [1]

فالمرأة مستعصية الوجود كاستعصاء الصليانة علي العير.

وليست المرأة نظير الحياة لأن كلا منهما أنثي- فقط،- بل لأن المرأة مصدر الحياة، فهي مصدر النسل والتعمير، وهذا عامل وجيه لفزع أبي العلاء منها، لأن يقينه يتمكن الشر من الطبيعة الإنسانية وبفساد الكون واستحكام حلقة الموت حول الإنسان، كل ذلك دافع لفزعه من المرأة واشتهائه إلا تبقي علي الأرض جالبة علي سكانها حياة يختمها الفناء ويضخمها الشقاء،... أن معاناة أبي العلاء في الحياة، وفساد المجتمع حوله جعلاه يتصور حياة كل وليد بهذه القتامة، لذلك فخير للنساء العقيم[2] لأنها توقف المهزلة البشرية:

كوني الثريا أو حضار أو اللـ جوزاء أو كالشمس لا تلد

فتلك أشرف من مؤنثه نجلت فضاق بنسلها البلد [3]

أبو العلاء يخشي علي النسل من أن يعاني مثل ما عاني، بل هو لا إذ لا يتخيل أن ينجو وليد من الاذى في الحياة يقول :

نادي حشا الأم الذي اشتملت عليه ويحك لا تظهر ومت كمدا

فان خرجت إلي الدنيا لقيت أذي من الحوادث بله القيظ والجمدا

وما تخلص يوما من مكارهها وأنت لابد فيها بالغ أمدا[4]

وحين ينظر أبو العلاء إلي الطير والحيوان يجدهما شديدى الحرص علي نسلهما والدفاع عنه، ويرغب في ألا يكون أقل منهما نبلا وحنانا[5]، ويري الوسيلة الوحيدة لرعاية نسله وحمايته هو أن يجمده في صلبه، مخالفا سنن الحياة كلها، بل متحديا الحياة بأنها لن تستطيع أيذاء نسله كما أنته من قبل[6] وانه لن يدفع بفلذات كبده إلي مغالبة قسوة الكون وغوامضه ومتاهاته[1].

---

(١) ل٢/ص ٣٥٧ الصليانة بنت تحبه العير وليس له تمكن في الأرض.
(٢) ل٢/ص ٢٧٦.
(٣) ل٢/ص ١٩٤ وكذلك ل١/ص ٢٥٢
(٤) ل١/ ٢٥٩
(٥) ل٢/ص ١٤
(٦) ل٢/ص ٣٦٩

ومتاهاته[1].

ولأن المرأة ما زالت تعيش وتتحداه بحرمانه منها، وتتحداه بتعمير الكون فليس يملك إزاءها إلا الدعاء بأن تولد في قبرها بدلا من خدر عرسها[2] فالمرأة والسعادة في الحياة لا يجتمعان في عينيه أبدا:

بدء السعـادة أن لم تولد امرأة　　فهل تود جمادى أنها رجب[3]

ولا يخلو ذم أبي العلاء للزواج وتعطيله للنسل من أنانية وحب للذات وخوف عليها، لأنه – كما نري في شعره- لا ينتظر الخير من النسل، بل تتملكه وساوس العقوق، ويقيس صورة أبنائه بما يراه في المجتمع من أخلاق. فالنسل في شعره مشقة وأجحاف[4] وعقوق للأباء[5] والمتمني للولد كالمنتحر لأنه يتمني وحشا يفترسه[6].

تمنـت غلامـا يافعـا نافعـا لهـا　　وذاك دهـاء دس فيـه الدهـارس
سررت به إذا قيل أعطيت فارسا　　ومـا هـو إلا ضـيفم لـك فـارس[7]

يرى المعري أن أعدي أعداء الإنسان أبناؤه[8] بل أن البهائم ذاتها تشكو نسلها[9] وتعاني منهم وكأن العقوق والجحود قانون سرمدى للحياة في عينه.

وموقف أبي العلاء هذا من المرأة ومن النسل- وهما شئ واحد - ليس بمعزل عن موقفه من المجتمع وعزلته عنه،- وقد مر بنا وصفه لأخلاق هذا المجتمع وازدراؤه له،- فعلي الرغم من وجود كثير من المواضع في شعر أبي العلاء التي يذم فيها المرأة ويشكك في عفتها وأخلاصها، فأن كثيرا من المواضع الأخرى في هذا الشعر يهيب فيها المعرى بالمرأة أن تتحفظ وتحذر من كل شئ به شبهة، وأن تكون أكثر حرصا علي ذاتها، ويتوجه إليها في كثير

---

(١) يذهب إلي هذا الراي كل من : صاحب قضايا العصر في أدب ابي العلاء ص ٢٧٦، ٢٧٩ وصاحب " المعرى ذلك المجهول ص ٣٥ وصاحب الفكر والفن ص ٢٧٨
(٢) ل١/ص ٤٠٠.
(٣) ل١/ص ٧٥.
(٤) ل١/ص ١٦٥.
(٥) ل١/ص ٦٠.
(٦) ل٢/ص ١٧ ومثله قوله في ل٢/ص ١٦٧
(٧) ل٢/ص ١٧ ومثله قوله في ل٢/ص ١٦٧
(٨) ل١/ص ٤٠٩
(٩) رسالة الهناء/ص ١٤٧

من الشعر كاشفا لها الإشراك التي قد تزل فيها قدمها، محاولا الحفاظ علي وجود كريم لها، وفي مثل هذا الشعر، يضع أبو العلاء كل طبقات المجتمع في سلة واحدة من الاتهام، يضع العربي والعجمي، الزنديق والدين، راسما لنا الاضطراب البشع في مجتمعه.

ولا تلجنّ الحمام قد جاء ناصح ... بتحريمه من قبل أن يفسد الناس
فكيف به لما أغتدي في طريقه ... رجيب وحواش وتنج واشناس
تمازج بالعرب الأعاجم، والتقي ... علي الغدر أنواع تذم وأجناس
أناس كقوم ذاهبين وجوههم ... ولكنهم في باطن الأمر لسنانس [1]
جزي الله عني مؤنسا بصدوره ... جميلا ففي الإيحاش إيناس
تخافين شيطانا من الجن ماردا ... وعندك شيطان من الأنس خناس

وينادي أبو العلاء بتزويج المرأة[2]- رغم معارضته للزواج- أحصانا لها وضمانا لرجل يرعاها وينود عن محارمها، ويخشي علي المرأة من امرأة مثلها تحضها علي الفساد، ومن الطفل الذي لم يبلغ الحلم، كما يخشي عليها من الجار[3] بل يرفض ذهابها للحج والطريق إليه محفوف بالمخاطر[4]... وقد تجاوزت غيرته المرأة المسلمة لتصل إلي حد أن يغار علي المرأة الأجنبية التي أباح الإسلام سبيها[5] فيتوجع لما ينالها من أذى السبي،.... ولأن علاقة أبي العلاء بأمه كانت علاقة قوية، فقد توجه في شعره بالتكريم لكل عجوز، وأوصي بصونها أيا كان دينها[6].

ولكل هذه المخاطر التي تتعرض لها المرأة وللتي تهدد عفتها ونقاءها بالخطر اعتبر أبو العلاء المرأة الصادقة الوفية كنزا في حد ذاتها[7] ورأي

---

(١) ل٢/ص ١٤.
(٢) ل١/ص ٢٠٢.
(٣) ل١/ص ٤٠١.
(٤) ل٢/ص ٣٢٥.
(٥) د. صلاح مصيلحي . عقيدة أبي العلاء. دكتوراة بتربية طنطا . أشراف د. يوسف خليف/ ١٩٨٥م/ص ١٤٨.
(٦) ل١/ص ٣٩٠.
(٧) ل١/ص ٤٠٠.

الحصان الوفية جمالا مطلقا وأن كانت دميمة[1] وان من تزوج بمثل هذه الحصان يستحق التهنئة الحقيقية[2] وكأن أبا العلاء يصف لنا المرأة المثال التي يتمناها [3]!

لذلك نرى " توفيق" الفتاة السوداء الدميمة الحصان في الحياة منعمة في جنة غفرانه[4]... ان كل العوامل التي دفعت أبا العلاء إلي العزوف عن المرأة والمناداة بتعطيل النسل- كل هذه العوامل لم تمنع معاناته مما فرضه علي نفسه من هذا النوع من العزلة والانفصال عن الحياة، فقد منع نفسه من إشباع حاجاتها الفطرية، وحال دونها وغرائز في غاية الأهمية في حياة الإنسان: غريزة حب الحياة والابقاء عليها بالإشباع المادي منها، وغريزة حب النوع والحفاظ عليه بالتكاثر" وإذا كان ارتباط الأنا بالموضوع، والموضوع جزء كبير منه عائلة الإنسان- إذا كان هذا الارتباط- يعوق الاتصال الروحي، فإن افتقاده يفعل ذلك الشئ، ويفضي إلي الغربة والوحدة والجزع الروحي والقلق النفسي"[5].

وهذا النوع من العزلة أيضا من عوامل اشتهاء أبي العلاء للموت[6] حيث تتجاوز المرأة ويتجاوز النسل معنيهما المباشر ليصبحا رمزا للانتماء إلي الحياة، ومعني للديمومة والألفة، مما يحزن أبو العلاء علي فقده فيقول:

إذا لم يكن خلفي كبير يضيعه حمامي، ولا طفل ففيم حياتي

وما العيش إلا علة برؤها الردي فخلي سبيلي انصرف لطياتي[7].

وفي أحد مواضع الفصول والغايات[8] يمزج أبو العلاء بين فقده لوالديه- الماضي- وحرمانه من نسل يحمل اسمه- المستقبل- ويصور نتيجة اجتماع هاتين المصيبتين عليه متمثلة في المزيد من الشعور بالوحدة والعزلة .

إذن فقد اجتمعت علي أبي العلاء صنوف من العزلة بعضها خلقته

---

(١) ل٢/ ص ٢٠١.
(٢) ق٢/ ص ٨٤٤.
(٣) د. عبد القادر زيدان. قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري . الهيئة المصرية العامة للكتاب . سلسلة كتابات أدبية/ ١٩٨٦م/ ص ٢٩٥
(٤) رسالة الغفران ص ٨٢ وتوفيق السوداء كانت تخدم بدار العلم ببغداد
(٥) المشكلة الخلقية/ ص ٢٨٤.
(٦) ل٢/ ص ٤٠.
(٧) ل١/ ص ١٧١.
(٨) الفصول والغايات/ ص ٣١

محنة فقد البصر، وبعضها الآخر خلقه تكوينه النفسي المتولد من هذه المحنة، كما أن بعضها يرجع إلي الخلل في بنية المجتمع، وبينما تعتقد الفلسفة أن العزلة- في مجملها- نتاج معرفة الشخص بذاته، وبالعالم من حوله، بينما تعتقد ذلك، لا تحبذ هذه العزلة في كل الأحوال، لأن هذا الانفصال أو الانعزال، إذا نظرنا إليه من ناحيته الإيجابية يكون الحرية، أما من ناحيته السلبية فهو الاغتراب".[1] كذلك فأن علم النفس يري أن الصحة النفسية للفرد رهن التكامل أو التوافق التام بين وظائفه النفسية، وقدرته علي مواجهة الخارج والتكيف معه[2].

أن رفض الواقع إمعان في العزلة، إمعان في الانفصال عن الحياة برمتها، ويصل أبو العلاء إلي هذه الدرجة من الاغتراب، حين يصف نفسه بالمائت في الحياة، أو الحي المائت:

ألـم تـر أننـي حـيّ كميـت ... أداري الوقت أو ميت كحـي
أحـاذر عـالمي وأخـاف منـي ... فالحي الناس بله بني لحـي[3]

ويسيطر عليه هذا الشعور، فيعتذر لأحدهم- حين يعزيه في عزيز فقده- بأن انقطاع صلته به إنما لأنه من الأموات لا من الأحياء الذين يتواصلون اجتماعيا يقول:

لـو كنـت حيـا مـا قطعتـك فاعتـذر ... منـي إليـك لخلـة بأمتهـا
فـالأرض تعلـم أننـي متـصرف ... مـن فوقهـا وكـأنني مـن تحتهـا[4]

أن البيت الأخير يصف اغتراب أبي العلاء الاجتماعي ويصف أيضا كل ما يدعوه إلي العزلة... وقد أدرك البطليموس من خلال هذه الأبيات أن أبا العلاء يشير بالموت إلي اعتزاله الناس وانقباضه عنهم[5] ويصف أبو العلاء نفسه دائما وهو يصارع طرفين متناقضين أحدهما المجتمع بأسره، والثاني عالم

---

(١) أريك فروم، الإنسان بين المظهر والجوهر ترجمة سعد زهران مراجعة وتقديم لطفي فطيم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت سلسلة عالم المعرفة رقم ١٤٠ سنة ١٩٨٩م/ص ١٤

(٢) سيكولوجية المرضي ونوي العاهات، ص ٤٧

(٣) ل٢/ص ٤٤٧

(٤) ق٣/ص ١٠٢٨، ١٠٢٩

(٥) السابق/ص ١٠٢٩

الموت[1] وحين يحق الاختيار بينهما، ينتمي أبو العلاء إلي الموت: ليظفر بالعزلة فهي أكثر حنوا من عالم الأحياء البارد:

أن الـــذي الوحـــشة فـــي داره تؤنـــسه الرحمـــة فـــي لحـــده[2]

---

(١) ق٣ / ص ١٠٢٧.

(٢) شروح سقط الزند / ق ٣/ص ١٠٢٧